يَارُوزِيس

اغتصاب

بمباركات زوجية

اسم الرواية: **اغتصاب يازوريس بمباركات زوجية**

اسم المؤلف: **أحمد المحمدي**

تدقيق لغوي: **عصام إمام**

تصميم الغلاف: **علي عطية**

إخراج داخلي: **أسماء عطا**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٣٤١**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٣٠٢**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

أحمد المحمدي

اغتصاب يَارُوزِيس

بمباركات زوجية

روايـة

تنويه:

الأحداث المذكورة في الرواية ما هي إلا رؤية كاتب فيما سمعه عن ياروزيس، قام بصياغتها بالصورة التي رآها بها؛ لذا لا يمكن التعامل مع الرواية على أنها مصدرٍ تعليميٍ.

إهداء

إلى مَن أخذتني كلماته وفلسفته إلى أعماقي فأخرجت ما بها من طاقة ورغبة وتساؤلات، سرعان ما اتخذت لنفسها هذا الثوب الأدبي، الذي اتخذه هو مِن قبلي، إلى روائيّ المفضل، إلى المصري المنحوتة بقسماته وأحرفه حارات مصر، إلى عمِّ نجيب.

... وإلى مَن كان معي في رحلتي الأدبية بكل أشكالها، من كان معي دائمًا وأبدًا، إلى صديقي أو – كما أراه– إليّ "أحمد أبو العطا ".

الجزء الأول

افتتاحية

..."ما أجمله الهدوء"... هكذا قال "بِشري" حينما خطَا بقدمهِ على جزيرة الزرقاوي، كان بِشري بحّارًا عربيًّا، يذهب في جولاتٍ بحْريَّة عبر المحيطات على ظهر سفينته المُحمّلة بالبضائع المنتقلة من هذه الدولة إلى تلك، وكان بِشري على الرغم من صعوبة عمله إلا أنه كان يحبه؛ حيث كان يجد فيه هدوءًا لا يجده على اليابسة الغارقة في الصخب مِن أصوات سياراتٍ، ومصانع، وأُناسٍ لا يُجيدون شيئًا إلا الثرثرة.

... في إحدى جولاته عبر المحيط الهادي اكتشف جزيرة صغيرة تبدو من بعيد زرقاء اللون؛ لانعكاس مياه المحيط على جبالها الملساء كالمرايا، وعندما وصل إليها وجد بها ما كان يبحث عنه من هدوءٍ؛ وعزم بِشري على ترك ذلك العالَم الصاخب، والعيش في تلك الجزيرة الهادئة، وبالفعل عاد بِشري إلى بيتِه وأخبر زوجته "نِسيا" التي كانت مِثله تميل إلى الهدوء، فسارعت بإعداد كل ما يحتاجانه للعيش على تلك الجزيرة من أدوات وملابس وغيره من ضروريات الحياة.

... في اليوم التالي انطلق بشري وزوجته في رحلتهما في المحيط الهادي نحو جزيرة الزرقاوي، ووصل بشري ونِسيا إلى الجزيرة، وأخذَا يبحثان عن مكانٍ يبنيان فيه بيتهما ووقع اختيارهما على مكان عُرف بعد ذلك بِحارة القداسة.

... توقف بشري عن عمله بالبحر، وعاش وزوجته حياة بدائية معتمدين فيها على ثمار الجزيرة وصيد حيواناتها، وتناسيا العالم حتى نسياه، ورُزقا

بالأبناء ومع الوقت، أصبحت الجزيرة عامرة بالسكان بعد أن عاشت مهجورة زمنًا طويلًا.

... بعد وقت طويل جدًّا، ارتفع منسوب مياه المحيط، وغرقت الجزيرة، ولم ينجُ منها إلا بحّار وأسرته كانوا في رحلة صيد، وعند عودتهم لم يجدوا الجزيرة، وظلوا في مركبهم قرابة أسبوع يبحثون عنها، حتى عاد منسوب المياه إلى طبيعته، وبدأت تلوح لهم من بعيد فعادوا إليها، وعندما وصلوا كانت الجزيرة كما وجدها بشري منذ قرون خالية هادئة.

(١)

مِراي

... سارت الأسرة المكونة من شيخ وابنته ورضيعها مِراي في الجزيرة باحثةً عن مكان يستقرون فيه، حتى انتهى بهم السيْر إلى مكان أشبه بالجنة يتوسطه ينبوع ماء قد تفرّع عند نهايته وقد سوّرته أشجار فاكهة تتخللها زهور وأعشاب خضراء، وقد زاد انبهار الأسرة عندما وجدت رضيعة نائمة بين فرعي الينبوع وكأنه يحتضنها، وقد افترشت الزهور سريرًا، وأظلتها أشجار الفاكهة، والفراشات تطير حولها تلاعبها وهي تضحك وتحييها الرياح، ولم يكن في المكان أي شخص، وبدت تلك الجنة المتجاوبة مع الرضيعة للأسرة أنها أم تلاعب صغيرتها وتحنو عليها، ما دعا الأسرة إلى تسميتها ياروزيس.

... صنعت الأسرة كوخًا يأويهم، وقد تبنت رعاية ياروزيس، وأخذ الصغيران يكبران معًا تحنو عليهم تلك الأم التي تركها أبوها الشيخ ومات، وأخذت تصارع الحياة وحدها، وربما فضل الله عليها وبركة ياروزيس لم يعرضاها للشقاء، فقد اعتمدت على تلك الجنة النامية مع ياروزيس وكأنّ شيئًا يربطهما معًا، ورغم الفراغ المحيط بها كانت تجد في الصغيرين أُنسًا وضجيجًا وكأنها تعيش وسط جمع من الناس.

... كانت الأم تنظر إلى الصغيرين وهما يلعبان، وتتذكر دعوة جدِّ مِراي من أبيه بأن يرزقه الله حين يكبر بزوجة تكن أجمل النساء وجهًا وأطهرهن قلبًا، دعا له أن يرزق أم النساء التي كان الناس يروون القصص عنها ويمنون أنفسهم بإيجادها، وكانت الأم ترى أن ياروزيس هي تلك الزوجة، فهي لم ترَ في حياتها أجمل منها، فقد كان وجهها يشع نورًا لا يقلُّ

عن نور الجنة شيئًا، وكان قلبها طاهرًا لا يصدر عنه شرٌّ لأي مخلوق، فكانت حيوانات الجنة تلتف حولها وهي تلاعبهم وتطعمهم، وعند بلوغ الصغيرين زوجتها الأم، وكانت تنظر إليهما وهما يدخلان كوخها وتتصورهما بشري ونِسيا، وتمني نفسها باليوم الذي سيخرجان فيه من كوخها ومعهما أطفال كثر، سيغزون جزيرة الزرقاوي كما حدث في السابق

... ماتت الأم قبل أن تشهد الغزو الذي منت نفسها برؤيته، وعاش الزوجان معًا في جنة يارو، ورزقوا بالكثير من الأبناء، وكان مِراي زوجًا صالحًا، فكانت ياروزيس تجد نفسها معه تعيش في جنة بالفعل، وكان مِراي يقصُّ على أبنائه قصته وكيف التقى بها؟، وكيف كانت تعيش في الجنة وحدها؟، وكان الأبناء يسمعون تلك القصص بفخر، وكانوا ينظرون إلى أُمِّهم ويقولون:

-أُمُّنا هي أُمُّ النساء، أُمُّنا هي ياروزيس ابنة الجنة.

وكان الأب يوصي أبناءه على أمهم، وعلى رعايتها، وأن يكونوا أسرة واحدة دائمًا ملتفة حول أمهم، فقد كان دائم الإحساس أنه هو من سيتركها ويرحل أولًا، وبالفعل مات مِراي عن عمر سبعين عامًا، تاركًا ياروزيس في رعاية أبنائه، وقد حزنت عليه كثيرًا حتى تحوّل بياض وجهها صفارًا، وتساقطت أوراق الجنة كدموعها المنهمرة، وظنّ الأبناء أنهم لن يروا أمهم حزينة إلى تلك الدرجة بعد ذلك، ولكن المستقبل كان يخبئ لهم الكثير.

(٢)

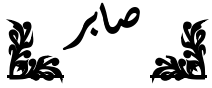

... مرت مئة وثلاثون عامًا، ازداد فيها عدد الأبناء والأحفاد، وانتقلت مجموعة منهم إلى جنوب الجنة واستقرت فيها، وبدأت الأطماع تدور حول تلك المرأة القابعة في كوخها بين فرعي الينبوع في شمال الجنة، تلك المرأة التي تدور حولها القصص من كونها ابنة الجنة، كما أن وصولها إلى عمر مئتي عام ولا تزال محتفظة بشبابها وجمالها أثار حولها قصصًا أخرى، فأخذوا يرددون أنها شربت من ينبوع الحياة بالجنة، وأن كل من يشرب منه يصير خالدًا مثلها، والبعض يقول أن جدهم مِراي قد وهبها حياته، وآخرون يقولون أنها أتت من عالم آخر.

... دارت الخناقات بين أهل الشمال وأهل الجنوب، فكِلا الفريقين يريدان الحصول عليها حتى تكون لهم المكانة الأكبر والكلمة المسموعة، متناسين أنها جدتهم جميعًا، وقد ظنوا أن ذلك الحزن المرسوم على وجهها هو لحزنها على مِراي، ولكنها في الواقع كانت حزينة للحالة التي وصل إليها أحفاد مِراي.

... في أحد الأيام خرج أحد أبناء القصر بالجنوب وكان يُدعى "صابر"، وخطب في الناس قائلًا إنه سيتزوج ياروزيس، عندما وصل الخبر إليها؛ سقطت مغشيًا عليها من الصدمة، وسمع الأحفاد أصوات رياح شديدة وكأنها في عراك مع أشجار الجنة، واقتلعت الرياح الكثير من الأشجار، وأخذت مياه الينبوع تخرج منه وكأنه يبكي، وبدت الجنة لهم أمًّا غاضبة لابنتها.

... في الليل وبينما هي واقفة في شرفتها تنظر إلى الجنة وكأنها تحدثها، ولم تزل غارقة في صدمتها، إذْ بأحد قد تسلل إلى كوخها:

-مَنْ أنتَ؟

-أنا صابر يا جدتي،.

-جدتك! حمدًا لله أنك لا زلت تذكر أني جدتك.

-أنا لا أريد أنَ أتزوجك، كل ما أريده هو قدسية مكانتك ومكانة من يقربك، فيلتف حولي الناس ونعود أسرة واحدة كما كنا من قبل في عهد جدي مِراي، وتنتهي تلك الخناقات التي تفقدنا كل يوم أخوة، أنا لن أتزوجك، ولكن سنوهمهم بذلك فقط.

تبسمت ياروزيس بعد أن كان الحزن ملازمها لِمئة وثلاثين عامًا.

-لماذا تتبسمين يا جدتي؟!

-اليوم عاد مِراي، عندما تذكّر أحد أحفاده وصيته.

-أنا سعيد؛ لأنني أراك تبتسمين، ولكن يجب أن تتركي هذا الكوخ، وتنتقلي إلى منطقة محايدة حتى تنقطع تلك الخناقات إلى الأبد.

-ولو أن هذا الكوخ الصغير أحب إلى قلبي من كل العالم، ولكنني موافقة.

-سأُشَيّد لكِ بيتًا كبيرًا وسأجعله أبيض اللون لتكون أيامك كلها بيضاء لا يشوبها سواد الحزن.

... بعد ثلاثة أيام انتقلت ياروزيس إلى البيت الأبيض، وكان هذا بمثابة موافقة منها على الزواج، وانتقل صابر وأسرته إلى البيت الأبيض، وسرعان ما الْتف الناس حول صابر وهتفوا له ولقبوه بمِراي الموحد، موقف الخناقات.

... انتهت الخناقات، وحول صابر فكره نحو المعيشة، فبنى العديد من البيوت الكبيرة ليعيش فيها الناس بدلًا من تلك الأكواخ المبعثرة، وحاول إعادة تلك الجنة التي أشرفت على الموت إلى الحياة مرة أخرى، وكانت الخمس سنوات التي عاشها بعد الوحدة عامرة بأعمال الإصلاح، وقد استطاع في الخمس سنوات أن يقضي على الخراب الذي خلّفته خناقات دامت مئة وثلاثين عامًا.

... كان صابر شغوفًا بالصيد، وأثناء رحلة صيد في منطقة البيت الأبيض، تتبع فرس نهر، وأخذ في مطاردته، وابتعد عن أصدقائه، وأثناء محاولة الانقضاض عليه، هاجمه فرس النهر وقتله، وبعد فترة من البحث عنه وجد أصدقاؤه جثته وحملوها إلى البيت الأبيض، وهناك استقبلته أسرته بالنحيب، بينما وقفت ياروزيس من بعيد تنظر إليه وكأنها تحاول إخباره أنها تخاف الآن أن يشوب البيت الأبيض سوادًا لا يتركه.

... تم تجهيز الجثة للدفن، وخرجت الجنازة في اليوم التالي، وقد خرج الجميع وراءها يلونهم الحزن بالأسود، وقد قرروا إبقاء أسرته في البيت الأبيض تعتني بياروزيس تكريمًا له وتقديرًا لما بذله من أجلهم.

... ظلّت أسرة صابر في رعاية ياروزيس حتى أفناها الزمن، وقد اتخذ أبناء ياروزيس ممّا فعله صابر عادة، فكانوا يزوجون واحدًا منهم صوريًّا إلى ياروزيس، ثم ينتقل هو وأسرته للعيش معها في البيت الأبيض لرعايتها، وكان له بهذا الزواج الكلمة الأولى والأخيرة عليهم، حتى إذا مات، انتقلت الرعاية إلى أفراد أسرته ولهم ما كان له من كلمة مطاعة حتى يفنيهم الزمن، وهكذا.

(٣)

... بعد أسرة صابر، توالت الأُسر على ياروزيس، وتوالت معها القصص وأصبح كون ياروزيس ابنة الجنة والفتاة التي لا تشيب وشربها من ينبوع الحياة من الأمور المسلّم بها.

... ظهر في الأسرة الرابعة شاب يُدعى مَصون، اشتهر بشدة حبِّه لجدته، كان يحب مجالستها والحديث معها، وكان على عكس الجميع لا يحدّثها عن ماضيها وسرّ عمرها الممتد، وإنما كان يحدّثها عن شكل المستقبل الذي تريد أن تعيش فيه، وكان كثير الإلحاح عليها بالسؤال عمّا تحب، وكان يجهد نفسه في إحضاره لها، وفي صباح أحد الأيام دخل عليها فوجدها واقفة أمام المرآة:

-إنها لمرآة كاذبة مخادعة، لا تعكس جمالك الحقيقي يا جدتي.

-وكيف هو جمالي الحقيقي يا مصون؟

-جمال الجنة يا جدتي، ليس في ألوان زهورها، وارتفاع أشجارها، وكثرة ثمارها، وإنما هو في الخير الذي تمنحه لساكنيها.

-وما هو الخير الذي تعطيه امرأة في سنّي إلى كل هؤلاء الأحفاد؟

-إنك يا جدتي، أعظم أمٍّ في العالم لقد حاربت الموت وأبيت أن ترحلي قبل أن تتأكدي أن كل أحفادك قد وصلوا إلى بر الأمان.

-حاربت الموت! ألا تسمعهم يرددون قصص ينبوع الحياة.

-إنهم حمقى، لا يوجد شيء يسمى ينبوع الحياة، وإنما هو الإيمان ما يجعل المرء خالدًا، وإيمانك بمسؤوليتك يا جدتي، ليس له مثيل .... كدت أنسى، ماذا تحبين أن أحضر لك اليوم؟

-يكفي يا مصون، ما أحضرته لي قبل ذلك، لم يبق شيء لم تحضره لي.

-لقد سمعت اليوم أنهم عثروا على أحجار شديدة الجمال في منطقة العراء.

-ماذا؟ أتريد أن تذهب إلى منطقة العراء، ألا تعلم أنها عامرة بالحيوانات المفترسة، كما أنها تقع على أطراف الحارة ولا ندري ماذا يقبع خلفها؟، أتريد أن تذهب ولا تعود؟

-لا تخافي عليّ يا جدتي، فأنا لن أكون وحدي، سوف أذهب برفقة مجموعة من أصدقائي.

-أنا أعلم كم أنت عنيد، ولن أقدر عليك، ولكن عِدني ألا تعرض نفسك للخطر.

-أعدُك.

... خرج مصون مع عشرة من أصدقائه وحملوا معهم بعض الأسلحة، والطعام، وقد أخذت المسافة من البيت الأبيض للعراء يومًا كاملًا، وعندما وصلوا كانت الشمس قد غربت فقرروا المبيت وتأجيل البحث عن الأحجار في الصباح، ولكن صوت الحيوانات المتردد بين التلال وكأنها تدير حوارًا، حال دون نومهم.

... بدأ مصون ورفاقه في البحث مع أول شعاع نور، وقد استغرقت عمليات الحفر والتنقيب النهار كله، وقد عثروا على الكثير من الأحجار، اختصّ مصون أجملها لجدته، وحملوا معهم الباقي لأُسَرهم، ومضوا في طريق عودتهم ليلًا مهتدين بنور القمر.

... وصل مصون ورفاقه في الصباح الباكر وكان الناس لا يزالون غارقين في النوم، ولمح من بعيد جدته واقفة في شرفتها تراقب الطريق، وفجأة تبسمت وكأنها ظمآن لمح الماء من بعيد.

... صنع مصون من الأحجار عقدًا لجدته، وكانت حين ترتديه ينعكس نور وجهها على الأحجار فتتلألأ كالنجوم حول القمر.

... كان مصون يبتهج حين يرى جدته، وترسم البسمة على وجهه حين يحدثها، ولكن في أواخر عمره أخذت تلك البسمة تختفي بالتدريج، حتى دخل عليها يومًا وقد غشى سواد الحزن وجهه فسألته:

-أين أنت يا مصون؟

-أنا حيث لا أريد أن أذهب.

-وأين هذا المكان؟

-بعيدًا عنك يا جدتي.

-ولِمَ البعد ما دمت لا تريده؟

-ليته كان بخياري.

-خيار مَن إذًا؟

-خيار الموت.

-ولمَ تدعه يختار لك؟

-لأنني لا أقوى عليه.

-ولكن الإيمان يقوى عليه، أليس هذا كلامك؟!

-ربما إيماني أيضًا ضعيف.

-إذًا تقويه.

-وكيف ذلك؟

-عليك أن تكتشف ذلك بنفسك.

... خرج مصون من عند جدته يفكّر في كلامها، ويسأل نفسه عمّا يجعله خالدًا، وهل حقًّا يوجد سرٌّ لخلود جدته؟ كما يتحدث الناس، وإن كان يوجد لِمَ لا تخبره به؟، ولِمَ تتركه في دوامة البحث؟، لِمَ تضعه في سباق مع الموت؟ فيسبقه قبل أن يكتشف سرّ الخلود، أم أنه لا يوجد ولكنها تحاول التخفيف عنه فقط .... ولكن جدتي لا تعرف الكذب، إذًا ما الحل؟

... ظلّ مصون حائرًا عدة أيام، شاردَ الذهن، لا ينتبه لوجود أحد حوله، يفكر فيما سيجعله خالدًا فيبقى مع جدته التي يحبها، فهي من أسمته "مصون"، وهي من كانت تحمله وتسير به في الجنة حتى إذا وصلا إلى مكان كوخها القديم، أخذت تقصّ عليه قصصًا عن جدّه مِراي وكيف نجت أسرته من غرق الجزيرة؟، وكيف كان جدُّه رجلًا صالحًا مؤمنًا؟، وكانت كثيرًا ما تخبره أن جدَّه خالدٌ أيضًا، ولكن في مكان آخر، وأنه يزورها دائمًا من حينٍ لآخر؛ ليطمئن عليها، ويحدّثها عن الجنة الكبيرة التي يسكنها، وكانت دائمًا ما ترجع سبب تلك الأحداث إلى إيمان جدّه، إذًا هو الإيمان، هو سر الخلود، ولكن سأخلد بعيدًا عن جدتي، ولكن ماذا إن اخترت مكان خلودي بنفسي ؟

... بدأ مصون في بناء مقبرة له في منطقة البيت الأبيض؛ كي يخلد فيها إلى جوار جدته، وقد أحضر لها أفضل مواد البناء وأفضل البنائين؛ كي لا يدمرها الزمن، وقد عهد إلى العمال بإعطائهم الكثير من الجواهر التي أحضرها من العراء؛ إذا هم أحكموا بناء المقبرة، واستغرقت عملية البناء عامين، نتج عنها مقبرة عظيمة شيدت على مساحة كبيرة من منطقة البيت الأبيض، وكانت شديدة الارتفاع بحيث يمكن رؤيتها من أي مكان في الجنة، وقد بنى أمامها ثلاث مقابر صغيرة، واحدة لأمه، واثنين لزوجتيه، كما بنى مكانًا للعبادة؛ قضى فيه ما تبقى من عمره؛ ليضمن له ذلك الخلود.

... كان مصون خلال وقت البناء، يتجنب زيارة جدته، وبعد الانتهاء قدم إليها مبتسمًا وقال لها:

-اليوم لن أتركك أبدًا.

فابتسمت له جدته، وخلعت عقدها وأعطته له قائلة:

-إذًا اجعل هذه الأحجار معك؛ حتى إذا سكنت هذا البيت الضخم المظلم، أرشدك نورها إليّ.

... انتقل مصون إلى مقبرته في جنازة عظيمة كالمقبرة، وقد وُضع فيها ويده ممسكة بالعقد، ولم تظهر على ياروزيس علامات الحزن، ليس لأنه جوارها أو لصغر قدره عندها، ولكن لأنها اعتادت أن تشهد كل يوم جنازة أحد أحفادها، وكانت تنظر من شرفتها إلى المقبرة وتلمح نورًا خافتًا منبعثًا منها، فتتخيل مصون يتتبع نور الأحجار للخروج من ذلك الظلام الموحش.

(٤)

عام

... بعد مئة عام من الوحدة والسلام، نشبت خناقة بين الأسرة الراعية لياروزيس في البيت الأبيض وبين كبير بيت سويف، أدت إلى انقسام الجنة والسكان مجددًا، بحيث يكون الجزء الشمالي تابع لكبير بيت سويف، والجزء الجنوبي تابع للأسرة الراعية التي اضطرت إلى ترك البيت الأبيض والذهاب إلى القصر في الجنوب مصطحبة ياروزيس معها، التي لحظة خروجها نظرت إلى البيت الأبيض وقالت له: "لو أنك لا تزال أبيض لبقيت فيك، ولكن لونك استحال سوادًا".

... للخناقات المتكررة احترق الكثير من أشجار الجنة، ووقع الكثير من الأحفاد في قبضة الموت، وتدهورت صحة ياروزيس بسبب حزنها الدائم، ما دعا كبير الأسرة الراعية إلى عقد معاهدة مع كبير بيت سويف، تنصّ على إيقاف الخناقة مقابل احتفاظ كل منهما بما تحت يديه، وربما خففت تلك المعاهدة من حزن ياروزيس ولكنها ظلت حزينة للفُرقة بين أحفادها.

... لم تكن تلك المعاهدة مُرضية لكبير بيت سويف، فرغم تساوي الأملاك إلا أن وجود ياروزيس في الجزء الجنوبي كان مقويًّا لسلطة الأسرة الراعية ومضعفًا لسلطته، وكان الكثير من سكان الشمال لا يمتثلون لأوامره ولا يعدوه كبيرهم، ما جعله يفكّر في معاودة الهجوم على القصر ومحاولة نقل ياروزيس إلى بيت سويف، وكان ينتظر اللحظة المناسبة لذلك.

... جاءت اللحظة المناسبة، حيث تُوفي كبير الأسرة الراعية، وكان ابنه حام صغيرَ السن، فأرسل كبير بيت سويف عشرين رجلًا إلى القصر؛ لاختطاف ياروزيس وإحضارها إلى بيت سويف، وعلِم حام بما يدبِّره كبيرُ بيت سويف وعلم أن رجاله سيسيرون بمحاذاة الينبوع، فخرج بصحبة ثلاثين رجلًا بعصيِّهم، واختبأوا فوق أشجار الجنة على جانبي الينبوع، وما أن وصل رجال بيت سويف حتى وثبوا فوقهم وانْهالوا عليهم بالضرب حتى لم يستطع الرجل منهم أن يحرِّك يده، ثم تسللوا بين أشجار الجنة حتى وصلوا إلى بيت سويف فتسلقوا أسواره وتسللوا بداخله حتى وصلوا إلى غرفة كبير البيت، فأمسكوا به وصعدوا به إلى سطح البيت، وصاح حام :

-يا أهل سويف، هذا كبيرُكم لا يملك سلطة على نفسه، هؤلاء رجاله على جانبي الينبوع تلاصق وجوههم تراب الجنة لا يستطيعون نهوضًا، وها أنا حام حفيد ياروزيس وراعيها، فمَن مِنَّا تتبعون؟

عمّ الصمت لحظات ثم هتف الناس:

-نتبع حام بن صابر الموحد.

... حُمل كبير بيت سويف إلى القصر، وهناك قرر حام أن يضرب بالعصا حتى الموت؛ ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه خلْق فُرقة بين أحفاد مِراي، وقبل الشروع في ضربِه خرجت ياروزيس من غرفتها قائلة بحزن:

-ولكنّه يظلُّ واحدًا من أحفادي.

فعدل حام عن قراره، وقرر بدل ذلك نفيَه إلى منطقة العراء، فإمّا تقتله الحيوانات المفترسة، وإمّا يجد لنفسه سبيلًا آخر للحياة غير الجنة.

... ظهر أثناء فترة الخناقات مجموعة من الناس ليسوا بأحفاد مِراي وياروزيس في منطقة السوق بالجنوب واستولوا عليه وقتلوا من كانوا فيها، كما ظهرت مجموعة أخرى في العراء قتلت المنقِّبين عن الأحجار

الكريمة واستولت على المنطقة، في تلك اللحظة علم أحفاد ياروزيس أنهم ليسوا بمفردهم على الجزيرة، وأن جدَّهم مِراي وأسرته ليسوا بالنّاجين وحدهم من غرق الجزيرة، وأنّ هناك العديد من الأغراب حولهم، وهؤلاء الأغراب يبدو أنهم لا يكنون تجاههم خيرًا.

... كانت تلك الأخبار مخيفة لحام، وذهب إلى جدته لعلّه يجد عندها ما يخفف روْعه:

-جدتي، هل تعلمين شيئًا عن أولئك الأغراب؟ هل حدّثك جدي عنهم؟

-لم يكن جدُّك بأعلمَ منِّي، ولكن أم جدك مِراي خبرتنا أن الجزيرة كانت عامرة قبل غرقها، وأنهم نجوا بفضل سفينتهم، فربما لم يكن هم فقط من نجا على ظهر سفينة.

-وماذا يريدون منا؟ إن الجزيرة شاسعة.

-لقد خبَّرتنا الأم أن الناس قبل الغرق كانوا يبحثون عن امرأة يقولون إنها أم النساء، ربما هم لا يزالون في بحثهم عنها.

-وكيف هي أم النساء يا جدتي؟

-لها نور لا ينطفئ، وحب يغرق العالم فيه.

-وهل هي خالدة؟

-أتحوم بسؤالك حولي يا حام؟ لن أنكر أن الأم كانت تقول لي إنني فيّ مِن صفاتها.

-إذًا أنت في خطر.

-لا خطر ونحن واحد يا حام.

-ووحدتنا لن أسمح أن يفككها أحد.

... هؤلاء الأغراب لا يكنون إلا الشرَّ والطمعَ، لقد قتلوا الناس في السوق وسرقوا البضائع، والآخرون يسيطرون على العراء وما به من

أحجار كريمة، فماذا سيفعلون إن وصلوا إلى الجدة وقد طمع فيها أحفادها من قبل، فما بالنا بالأغراب.

... أخذ حام مجموعة من الرجال ومعهم عصيّهم وبعض سيوف، وانطلقوا نحو السوق أولًا، حيث وجد أن الأغراب به قد أفنوا ما فيه وسرعان ما سيتعمقون في الجنة، أما الأغراب في العراء ستشغلهم الأحجار وستؤخرهم الحيوانات المفترسة عن التقدّم، وربما ظنوا أن هذا العراء الموحش لا يمكن أن يوجد وراءه جنة عظيمة فيرحلون.

... سَارَ حام ورفاقُه بمُحاذاة الينبوع، وعندما اقتربوا من السوق اتجه فريق منهم إلى أطراف الجنة بينما استمر الباقون في السير بمحاذاة الينبوع، وقاموا بتطويق الغرباء، ولم يكن هؤلاء الغرباء بأصحاب قوى أو عدد فتمكنوا منهم، وقرر حام أخذهم إلى القصر حتى يعلم مَن هم ومَن أين قدِموا؟.

... اتجه حام بعد ذلك إلى منطقة العراء، بحيث سار بمحاذاة الترعة الشرقية وعندما اقترب من العراء كان الليل قد غزا المكان، فقام هو ورجاله بالنزول إلى الترعة وأكملوا طريقهم إلى العراء سباحة، وعندما وصلوا كان الغرباء يغطون في النوم، فسحبوهم إلى الترعة وقاموا بقتلهم وإغراق جثثهم بها، وحاول حام إبقاء أحدهم على قيد الحياة وأخذه إلى القصر، ولكنه تمكّن من الهرب متجهًا ناحية الشرق إلى ما بعد العراء.

... عاد حام ورجاله إلى القصر، وطلب رؤية الغرباء، فحضروا إليه:

-مَن أنتم؟

-نحن من منطقة تقع جنوبكم.

-ولِمَ قدِمْتم إلينا؟!

-لَمْ نكنْ نعلمُ أنّ هناك غيرنا على تلك الجزيرة.

-ولِمَ قتلتُم أهلنا في السوق؟!

-أُعذرنا، لقد تملّكنا الخوف ولمْ نعقلْ ما نفعلُ.

-وهل تعرفون شيئًا عن غرباء العراء؟

-نحن لمْ نخرج منَ السوق، ولا نعلم شيئًا عمّا تتحدث عنه، اتركنا نرحلْ ولن نعود إليكم ثانية.

-ومَنْ يضمن لي ألَّا يطولَنا شرُّكم مرة أخرى؟

-نحن لم نقصد شرًّا.

-سأدعكم تذهبون، ولكن إن فكرتم في إصابتنا بأذى، فلن تجدوا منا إلا ما لاقاه غرباء العراء من موت، وتلك الترعة التي تحوّل لونها إلى الأحمر من دمائهم خير شاهد على كلامي.

... تركهم حام يرحلون، ولكنه أرسل عشرة رجال أشداء بأُسَرهم للعيش في أقصى جنوب الجنة؛ حتى يكونوا له عينًا ويدًا أُولى إن عاود الأغراب فعلتهم، كما أرسل عشرة رجال آخرين للعيش في منطقة العراء وتكلف بإرسال الطعام لهم يوميًّا مع المنقِّبين عن الأحجار الكريمة، وأرسل رجالًا آخرين إلى غرب الجنة، فرغم أنه لم يأت أحد من ناحية الغرب إلا أنه لا يأمن الزمن.

... بعد تلك الفترة العصيبة من خناقات أهلية، وظهور أغراب معتدين، اتجه حام إلى ربّه، فقد كان مؤمنًا، وقام ببناء دار للعبادة بجوار القصر، وقضى حياته في التعبُّد حتى انتقل إلى ربه.

(٥)

سنوحي

... انتقلت الرعاية كالعادة بعد موت حام إلى باقي أفراد أسرته، وأخذت في تسلسلها حتى وصلت إلى حفيدِه الذي سمي حام على اسمه.

... كان للحفيد صديقان مُقربان، أحدهما من منزل التمساح ويدعى "سنوحي"، والآخر من القصر ويدعى "رفيق"، وكان حام وسنوحي ورفيق يقضون معظم أوقاتهم معًا، وكان حام كثيرًا ما يأخذ رأيهما ويطلب مشورتهما إذا واجهته مشكلة في رعايته بجدته والأحفاد، ولكن سنوحي كان يحقد على حام ويتمنى أن تكون له تلك المكانة المقرّبة إلى جدته عوضًا عنه، وكان يرى نفسه أجدر بها من حام الضعيف.

... كان للأصدقاء الثلاثة عادة التجوُّل ليلًا على شاطئ الترعة الحمراء التي قُتل فيها الغرباء من قبل، وفي إحدى المرات تغيب رفيق؛ لمرضه، وبينما كان سنوحي وحام يسيران على شاطئ الترعة سأله سنوحي:

-هل تعلم لمَ تسمى بالترعة الحمراء؟

-نعم، لأن دماء الغرباء اختلطت معها، وخرج حام منها يصرخ " هذه الترعة الحمراء أكبر دليل على ما سنفعله بمن يحاول الاعتداء علينا ".

-بل؛ لأن دماء حام هي ما ستختلط به.

في تلك اللحظة تلقّى حام ضربة على رأسه بشيء صلب، ثم وجد نفسه يهوي في الترعة، وما هي إلا لحظات حتى فقد الشعور بنفسه وبكل شيء.

... عندما أشرقت الشمس ولم يعُد حام، قلقت عليه ياروزيس ودعت رفيق وسنوحي لتسألهما عنه:

-لمْ يعُدْ حام منذ البارحة، ألا تعلمانِ أين ذهب؟

أجابها رفيق:

-لقد كنت مريضًا بالأمس ولم أخرج معهما كالعادة.

وأجاب سنوحي:

-لقد اتفقنا على الخروج معًا، ولكنه اعتذر وأخبرني أنه سيزور رفيق.

-هو بالفعل زارني، ولكنه خرج بعدها؛ ليقابلك.

-وهل خرج على قدميه، أم خرج على ظهرك؟

-ماذا تقصد يا سنوحي؟

-أقصد أنك ادّعيْت المرض لتقتله، لقد كنت دائمَ الحقد له، وكثيرًا ما حذرته منك، ولكنه لم يسمع مني، الله يرحمك يا حام! لقد كان قلبك طيبًا لا يمكنه رؤية السواد في قلوب الحاقدين.

-أنا لم أقتله بل أنت من يحقد عليه وأنت من قتله.

تصادم حديث الاثنين وعلا صوتهما حتى صرخت فيهما ياروزيس:

-توقفا، ألا يكفي أننا فقدناه، أتريدانِ أنْ نفقد أحدكما أيضًا؟

... خرج الشابان، وانطلق سنوحي إلى ساحة القصر يصرخ:

-لقد قُتل حام، قَتله هذا الخائن؛ ليحصل على مكانته، فهو أيضًا من أبناء القصر ومن أحفاد حام الكبير، إنه يحقد عليه؛ لمكانته، وقد دفعه حقده إلى قتله، إن حفيد حام قد لوّث ترعة حام بدماء حام، لا يجب أن تتركوه يحيا بينكم، سوف يدفعه حقده أيضًا إلى قتلكم، سوف يقتل ياروزيس؛ ليخرج بينكم ويقول: أنا قتلت الخالدة، أنا قتلت الخلود، أنا أعظم منكم جميعًا، وعليكم طاعتي، اقتلوه قبل أن يدمرنا حقدُه، اقتلوه واثأروا لِحام، اقتلوه.

أمّا رفيق الذي أجهده المرض وزاد عليه فراق صديقه ودموع جدته لم يقدر على الكلام والدفاع عن نفسه، وانْهالَ الناس عليه بالضرب حتى ألحقوه بصديقه.

... بعد موت حام ورفيق، لم يبق أحد من الأسرة الراعية، وكان كالعادة لا بدّ من اختيار شخص جديد يزوجوه لياروزيس وينتقل هو وأسرته إلى القصر لرعايتها ويكون زعيمًا عليهم، ولم يجدوا في ذلك الوقت أنسب من سنوحي البطل كاشف مؤامرة رفيق، الذي اختفى صوته من النحيب على صديقه، ولكن سنوحي رفض الانتقال إلى القصر متعللًا؛ بأنه يذكِّره بصديقه، وقلبه لن يحتمل ذلك، وطلب أن تنتقل ياروزيس للعيش معه وأسرته في بيت التمساح، وبالفعل انتقلت ياروزيس إلى بيت التمساح غير معترضة فقد تركت في السابق كوخها ومن بعده البيت الأبيض، وليس القصر بأغلى منهما.

... اعترضت مجموعة من الناس على تلك الأحداث الأخيرة، من قتل رفيق دون تحقيق، وترك ياروزيس للقصر، واختيار سنوحي لرعاية ياروزيس رغم أنه مشتبه به في قتل حام، وحاول سنوحي في بادئ الأمر أن يتعامل مع هؤلاء بنفس الأسلوب الذي سلكه مِن قبل، مِن لينٍ واستعطاف ومكرٍ، ولكن عندما استمر الاعتراض عليه، استخدم القوة فأمر رجاله بضربهم حتى يسكتوا أو يسكتهم الموت، وحتى لا تظهر كل يوم مجموعة جديدة تعترض عليه وعلى أفعاله، وحتى لا تنشب خناقات بين مُناصريه ومُعارضيه، أنشأ ما يسمى بالخفارة، وهم مجموعة من ثلاثة إلى خمسة رجال يقيمون في غرفة من كل بيت كبير، يقومون على أمنِه وفضِّ أي نزاع فيه ويشرفون على تنفيذ أوامر الأسرة الراعية فيه، ورغم أنها أنشِئت في البداية؛ لردع المعارضين إلا أنها وفّرت الأمن للناس ونشرت حالة من السلام في أرجاء الحارة .

... الهدوء الذي يسبق العاصفة، منذ أن قَتل حام الكبير غرباءُ العراء، وطرد غرباء السوق، ولم يسمع عنهم أحد، حتى جاءه رجلان أحدهما من الرجال الذين أسكنهم حام على الحدود الغربية للحارة، والآخر من الذين أسكنهم العراء، ويبدو عليهما آثار جري عنيف، وأخبره كل منهما أنه رأى مجموعة كبيرة من الرجال يحملون عصيًّا وسيوفًا، ومتجهين نحو الجنة، وعند سماعه ذلك خرج قلبه من جسده؛ إن ذلك أكبر من الخناقات الأهلية التي فضها صابر، وأخطر من غرباء حام غير المسلحين قليلي العدد، لقد قتلت "حام"؛ لأنه كان ضعيفًا ورأيت في نفسي قوة وجدارة بتلك المكانة، فهل أصير الآن ضعيفًا؟ هل سأدعهم يغرقونني في الترعة الحمراء كما فعلتُ بحام؟ أنا لا أريد أن أموت هكذا، لا أريد أن أموت ضعيفًا مثله، أنا لست ضعيفًا كحام، أستسلم للموت، أنا قوي كمصون الذي هزم الموت وصار خالدًا، أنا قوي .... أنا قوي .... أنا لن أموت.

... أرسل سريعًا إلى خفاراته، وأمرهم بجمع كل الرجال وإحضارهم إلى بيت التمساح، ومن يرفض الخروج معهم؛ يقتلوه فهو لا يستحق أن يموت شهيدًا على أيدي الغرباء، بل يستحق الموت عقابًا على خيانته، وأن يأمروا الأطفال والنساء بالصعود إلى أسطُح المنازل فإذا رأوا غريبًا قادمًا أرسلوا عليه تيارات من الحصى، ثم خرج هو ورجاله من بيت التمساح وأخذوا يقطعون أغصان الأشجار الكبيرة الصلبة، ثم قاموا بتوزيعها على الرجال وحملوا معهم أيضًا السيوف المستخدمة في الصيد، واتبع استراتيجية حام الكبير، فاتجه نحو الغرب أولًا؛ حيث إن الغرباء القادمين من ناحية العراء ستعوقهم وعورة الطريق وطوله، وإن وصلوا إلى الجنة قبل عودته من الغرب فسوف يتصدى لهم الأطفال والنساء من فوق الأسطح .

... وصل ورجاله إلى الغرب واشتبكوا مع الغرباء في خناقة عنيفة، تلقّى فيها ضربتين في قدمه؛ فسقط على الأرض ووجّه إليه الغريب ضربة على

رأسه ولكنه تدحرج على بطنه فتفاداها، ثم مدّ يده وسحب العصا منه قبل أن يدرك أنه نجا من ضربته، ثم وجّهها إلى بطنه، ثم ضربه على رقبته فخرّ على الأرض، ثم نهض فرأى في أعين رجاله قوة الحق ورأى جبن الاعتداء يهرب أمامهم، فجرى هو ورجاله وراءهم خارجين -لأول مرة - من حدود الجنة حتى وصلوا إلى مكان أشبه بجنتهم ببيوتهِ الكبيرة وسكانهِ الكثيرة، من رجال ونساء وأطفال إلا أنه لا يوجد به جنة كجنتهم، وهنا تذكر غرباء العراء فعاد مسرعًا إلى الجنة، فوجدهم قد وصلوا إليها ووجد الجنة قد ارتوت من دمائهم بحصى الأطفال والنساء، وعندما رأى الغرباء الغارقون في دمائهم الرجالَ قادمين من بعيد بعصيّهم؛ فرّوا ناحية العراء وتبعهم سنوحي وجنوده، وعندما صعد التل بالعراء، رأى الجزيرة الممتدة ورأى الكثير من البيوت الكبيرة والناس وتأكد في تلك اللحظة أن جنتهم ليست إلا حارة صغيرة في قرية يجاورها العديد من القرى، وعلم أن خروجه إلى تلك الجموع من الناس برجاله المسلحين بالعصي والسيوف سيكون نهايتهم، فقرر العودة إلى الجنة.

... عندما عاد سنوحي إلى بيت التمساح، صعد على السطح وخطب في الناس:

- يا أحفاد مِراي، يا أحفاد ياروزيس، نحن لسنا وحدنا في تلك الجزيرة، إنّ لنا الكثير من الجيران، وهؤلاء الجيران قد أثبتوا أكثر من مرة أنهم لا يكنون ودًّا لنا، ولكنني واثق أن هؤلاء الأطفال والنساء الذين وقفوا في مقدمة صفوف الرجال أمام هؤلاء المعتدين لن يسمحوا لهم في أي وقت يحاولون فيه مجددًا وسيحاولون مهاجمتنا، لن يسمحوا لهم أن يمسوا ذرة تراب من طين جنتنا، لن يسمحوا لهم الاقتراب من جدتنا، فشكرًا لكل من وقف مستعينًا بقوة الحق على الباطل، وخالدًا هو من مات من أجلنا.

وقام بتعزيز الرجال على حدود الحارة، بحيث لن يكونوا مجرد مخبرين عن أي هجوم، بل سيكونون اليد الأولى أمام أي هجوم.

... دخل سنوحي على جدته فوجدها حزينة، تنظر إلى الجنة وتبكي، فسألها:

-لماذا تبكين يا جدتي؟

-أبكي على الموتى.

-ولكن شهداؤنا خالدون لم يموتوا.

-لا أبكي على شهدائنا فقد انتقلوا إلى الراحة، ولكنني أبكي على تلك الجنة التي أرقدتها الخناقات على سرير الموت.

-إذًا أنت حزينة على أمك.

-بل على أحفادي الذين سيتضورون جوعًا بعد موتها.

-وماذا نصنع لها؟

-نعيدها إلى الحياة.

-وكيف؟ هل هناك من يعود من مملكة الموتى؟

-كل حفيد يموت يولد غيره.

-وكل غصن اقتلعته نزرع غيره.

قام سنوحي ورجاله بجمع البذور من الأشجار الموجودة، وقاموا بزراعتها مكان الأشجار المقتلعة، وقد فتح لهم نجاح تلك الزراعة بابًا لزراعة النباتات العشبية ونباتات الحبوب، بعد أن كانوا يعتمدون على الكمية القليلة التي تمنحهم إياها الجنة.

... بعد ثلاثة أعوام قضاها سنوحي في رعاية جدته، انتقل إلى جوار حام ومصون وصابر في مملكة الموتى، كما انتقل إلى جوارهم في القصص التي يرددها الناس، وإلى جوارهم في العظمة والخلود.

(٦)

الراعي

... في صحراء متبعثرة بها حشائش ضعيفة، يسوق راعٍ أغنامه النحيفة في ملل وفتور، بينما صاحبه قد أخذ يعزف بِنايه وقد انجذبت نحوه الأغنام:

-أتمنى أن أعلم سر سعادتك وروقان بالك.

-وهل هناك ما يدفعني لغير ذلك؟

-تلك الصحراء القاحلة، وتلك الأغنام النحيلة التي يقلّ عددها كل يوم من الجوع.

-اِحمدِ الله، نحن أفضل بكثير من غيرنا.

-غيرنا! غيرنا يمتلك جنة لا ينضب عطاؤها، تُروى القصص حولها كل يوم في إعجاب و....

-وألم من فقدوا أحبابهم الذين طمعوا مثلك فيها.

-وهي جديرة بالطمع وبالموت في سبيل الحصول عليها.

-مُت أنت وأغنامك إذًا في سبيلها، أما أنا سأظل أعزف هنا لأغنامي حتى تواريني تلك الصحراء.

-اعزف .... اعزف .... غدًا ستندم أنك لم تأتِ معي.

... اتجه بأغنامه نحو العراء المدخل الوحيد للجنة، ولم يكن ينوي الدخول إليها الآن؛ وإنما محاولة منه لاستكشاف المنطقة، إنّ هؤلاء الرجال المقيمين بالعراء لن يسمحوا له بالدخول وإنِ استخدم العنف سيقتلونه، وإن أتى إليهم في جمع سوف يرسلون إلى أهل الجنة يحذرونهم، وظل في تفكيره حتى أقبل اللّيل، ولم يخرجه من تفكيره إلا صوت الأغنام الفزعة، فالتفت

إليها فوجد الثعلب قد تسلل إليها في خفية، ثم أفزعها فتفرقت وأخذت تتحرك باضطراب فأصبحت فريسة سهلة له، وقد استهاله المشهد وأمعن في المراقبة متناسيًا أن تلك الأغنام التي تسقط الواحدة بعد الأخرى هي أغنامه .

... ترك أغنامه في صراعها، وذهب ليبدأ صراعه، نزل إلى الترعة الحمراء على بُعد من الرجال، وأخذ في السباحة حتى وصل إلى الشط المقابل، فنظر أمامه فوجد الجنة قائمة، ولكنه لا يستطيع أن يواجه أهلها وحده، فسار بمحاذاة الترعة حتى وصل إلى العراء حيث يقيم الرجال الذين لن يعطوا خيانة لأحد يأتي من ناحية الجنة، وعندما اقترب منهم ضرب اثنين منهم بعصاه على رأسهما فسقطا أرضًا، ثم اختبأ في الظلام؛ ليراقب باقي الرجال الذين أفزعهم الموقف وأخذوا يبحثون عنه في حركات مضطربة، وكلما سنحت له الفرصة خرج من الظلام؛ ليطيح بأحدهم ثم يعاود اختبائه كالثعلب، وما هي إلا ساعات حتى قضى عليهم جميعًا، ثم أسرع إلى أهله يسحب إحدى الجثث خلفه، وعندما وصل ألقاها أمامهم وقال :

-إن رجال العراء كلهم مثل هذه الجثة، فإن أسرعنا وصلنا إلى الجنة باكرًا فباغتناهم، وقضينا عليهم، ونعِمْنا في الجنة بقية عمرنا.

فردّ عليه أحد الحضور:

-ومَن يضمن لنا ألّا نلحقَ بمَن سبقونا ودفنوا بها؟

-ضمان! هل يوجد ضمان للثعلب أنه لن يقع في يد الراعي، إن طعم لحم الغنم هو الضمان، إني ذاهب فمَن لحقني نعِمَ معي، ومن فضّل تلك الصحراء القاحلة فلتدفنه رمالها.

وهَمَّ إلى الرحيل فسمع صوتًا من الحضور:

-انتظرْ أنا قادم معك.

-وأنا أيضًا.

-وأنا.

وفي لحظة وجد الحضور كلهم يتبعونه، ووجد أن دور الثعلب قد انتهى وحان دور الذئاب لتهجم على الخراف النائمة، ولا يوجد كلاب تحرسها.

... انطلقوا مسرعين ناحية الجنة مارِّين فوق جثث الرجال بالعراء، ووصلوا إلى شمال الجنة قبل شروق الشمس، فهجموا على البيوت الكبيرة بها، وقتلوا سكانها وفرّ بعضهم إلى الجنوب، وأرسلوا إلى باقي أهلهم ليأتوا للعيش في تلك البيوت العظيمة التي استولوا عليها، وشرعوا في بناء بيت كبير ما بين شمال الجنة والعراء ليكونوا قريبين من أهلهم، ويحتموا بداخله إذا هجم عليهم سكان الجنة.

... نقل أهل الشمال الفارُّون من الراعي ورجاله الخبر إلى الأسرة الراعية فقامت على الفور بجمع الرجال والاتجاه إلى الشمال، وعندما اقتربوا وجدوا أشياء غريبة تشبه العصي تلقَى عليهم من البيوت، وكانت تصيب الرجل منهم فيسقط محله قتيلًا، وسرعان ما وجدوا أنفسهم في تناقص مستمر، ففروا عائدين إلى الجنوب يسوقهم الخوف أمامه.

... قوّى هذا النصر أملَ الراعي في السيطرة على الجنة بأكملها، فخرج برجاله متجهًا إلى الجنوب، وعلمت الأسرة الراعية بذلك، فأمرت الناس بالتحصُّن في البيوت وإلقاء الحجارة عليهم من النوافذ والسطوح، حيث إنهم لن يستطيعوا مجاراة أسلحتهم الغريبة، وبالفعل عند وصول الراعي ورجاله انْهالت عليهم الحجارة من المنازل ففروا إلى الشمال يجرّون خيبتهم.

... مرت ستة أعوام والشمال تحت سيطرة الراعي وقد استنزف خيرات الجنة حتى كادت تنضب، ولم يكن يكتفي بأخذ حاجاته فقط بل كان يرسل ما يفيض عليه إلى أقاربه، أما الأحفاد في الجنوب فقد ألزمهم الخوف البيوت، لا يخرج منهم إلا مجموعة قليلة ليلًا؛ ليحضروا الطعام

من المناطق القريبة للبيوت، وقد استمرت الخناقات بينهم وبين الراعي طول تلك الفترة، ولم تظفر بشيء فهمْ يحتمون في بيوتهم ويلقونهم بالحجارة، والراعي ورجاله يختبئون في البيوت ويلقونهم بتلك السهام.

... كادت الجنة تنضب، وأمل الراعي في السيطرة على كل الجنة لم ينضب، وتسربت إليه القصص التي تدور حول ياروزيس وكونها ابنة الجنة وجدة كل هؤلاء الناس وكونها بعمر ثلاث مئة وخمسين عامًا ولا تزال محتفظة بجمالها وشبابها، وأن لها من القداسة عند أحفادها ما يجعلهم ينصاعون لأمر كل من يتقرب لها، فجعلته تلك القصص يغيّر طريقته في السيطرة على الجنة، فصرف نظره عن الخناقات ووجهها نحو ياروزيس، وكانت ياروزيس في تلك الفترة تسكن القصر وقد أغشاها الحزن على أحفادها، ولم تكن تدري ماذا تفعل لهم، ولم تجد من شيء تقوى عليه سوى التوجه إلى الله بالدعاء، وكانت آملة في أحفادها خيرًا .

... في إحدى الليالي وبينما ياروزيس غارقة في حزنها على أحفادها، وبجوارها قمر الزمان زوجة خالد كبير الأسرة الراعية تحاول التخفيف عنها، إذ بباب الغرفة يفتح ويظهر رجلان شديدان ليسوا من أبناء القصر، ولا يبدو أنهما من الأحفاد، فهَمَّت قمر الزمان على الصراخ فبادرها أحد الرجلين بضربة أفقدتها الوعي، أما ياروزيس الغارقة في حزنها فكانت لا تشعر بما يدور حولها، وإذْ بالرجل الآخر يضربها ضربة لتفقدها الوعي، ولكنها في الواقع أعادته لها، فوجدت قمر الزمان على الأرض يسيل الدم منها، ورجلين قد أمسكا بها فحاولت مقاومتهما، فعاود الرجل ضربها فسقطت على الأرض مغشيًّا عليها.

... أفاقت قمر الزمان بعد عدة ساعات، فلم تجد جدتها، وذكّرها الدم السائل من رأسها بما حدث، فخرجت من الغرفة تصرخ، فاستيقظ لصراخها أهل القصر جميعًا، وخرج خالد يجري يحاول اللحاق بها، وهي تجري نحو الشمال لا تتوقف ولا تستجيب للنداءات حولها حتى أسقطها

التعب أرضًا، فأخذت تزحف على بطنها ودموعها سيل وراءها وصراخها لا ينقطع، ولحقها خالد فأوقفها وسألها:

-ماذا بكِ؟

-الجدة، لقد أخذوها.

-مَن؟

-كلاب الراعي، أخذوا الجدة، أخذوا قدسيتنا، أخذوا شرفنا، أخذوا أرواحنا وتركونا أجسامًا فارغة، آاااه.

-وكيف حدث هذا؟ أين كان الحرس؟

-أهذا ما يهمك؟ إن الجدة في خطر، ربما قتلوها، أو ربما حدث لها ألعن من ذلك.

ثم التفتت لجموع الناس من حولها:

-هل أنتم رجال؟ كيف تكونوا رجالًا وامرأة منكم قد أخذها الأوباش؟ وليست أي امرأة بل هي أم النساء وأطهرهن.

وأخذت بعد ذلك تأتي بكلام غير مفهوم، أما خالد فقد اتجه إلى شجرة وقطع غصنًا ضخمًا منها، وقال:

-إن تلك الفِعلة ستكون نهايتهم، وهذا الفرع يحمل ملك الموت معه، فاتبعوني يا أحفاد مِراي من أجل شرفنا.

وانطلق الرجال معه، وسرعان ما انتشر الخبر في كل البيوت، فلحق بهم بقية الأحفاد، واتجهوا إلى بيت الراعي، وقد أنساهم الغضب سهام الراعي التي انهالت عليهم كالسيل، واستقبل الأحفاد الموت ولم يفروا من السهام كعادتهم، فخير للرجل أن يموت دون شرفه.

... وجد الراعي اختطافَ ياروزيس وموت كل هؤلاء الرجال فرصةً في السيطرة على الجنة أقرب، وأنّ من تبقّى من نساء وأطفال لن يستطيعوا

الوقوف أمامهم، فخرج برجاله متجهًا إلى الجنوب، وعندما وصل وجد البيوت فارغة تمامًا، فظن أن النساء والأطفال قد هربوا عندما علموا بموت رجالهم، وفجأة خرج الأطفال والنساء من خلف البيوت ومن فوق الأشجار ومن ينبوع الماء ومن خلف التلال على جانبي الجنة، وأخذت النساء تضربهم بأواني الطهي والسكاكين، والأطفال بالحجارة وأغصان الأشجار، وكانت تلك الخدعة كفيلة لإبادتهم جميعًا، ولم ينج منهم إلا الراعي وقلة من رجاله الذين فروا إلى بيتهم في الشمال .

... بعد هذا النصر، صاحت قمر الزمان في الناس:

-هيا بنا نلحق بهم، وننقذ جدتنا.

فردّ عليها ابنها كامل:

-لا يا أمي؛ فحِينها سيكون مصيرنا هو مصير آبائنا، وحينها لن يبقى لجدتي من ينقذها، سوف نلحق بهم ونرسلهم إلى الموت وننقذ جدتي ولكن ليس الآن، فإن كانوا يمتلكون القوة فلدينا العقل الذي هزمهم الآن وأثبت جدارته.

(٧)

مرت ثلاثة أعوام على اختطاف ياروزيس. شهدت خناقات متصلة بين أحفادها والراعي، بينما كانت هي تفترش أرض حجرة مظلمة، تبكي على حال أحفادها. وفي يوم عاد رجلان من الأحفاد إلى القصر يحملان "كامل"، وجسده قد تلوّن بالدم. وضعوا جثته على الأرض أمام أمه وأخيه، فاقتربت قمر الزمان منه ثم نزلت على ركبتيها وقبّلته، ثم نهضت واتّجهت إلى أحمد وقالت له:

- إنّ أخاك لم يمتْ، لقد عثر على كرامته، ومن له كرامة لا يموت، فلا تمت!

ثم دخلت إلى غرفتها بالقصر وجلست على الأرض ملقية رأسها على السرير وقد احتضنتها بذراعيها وأخذت تبكي، ولحق بها أحمد وعندما وجدها تبكي سألها:

-لماذا البكاء؟ ألم تقولي إنّ "كامل" لم يمت؟

-لا أبكي؛ لأنه مات، بل لأنني لم أمت قبل أن أدعهم يأخذونها، أنا لا أستحق الحياة، أنا المذنبة!

-حقًّا أنت مذنبة؛ لأنك أرسلت زوجك وابنك الأكبر إلى كرامتهما، بينما تركتني بلا كرامة، ولكني أعدك أنني سأعثر على كرامتي وكرامتنا جميعًا.

خرج أحمد من عند أمه لا يدري أين يذهب حتى وجد نفسه أمام الترعة الحمراء، فأخذ يتسائل "كيف دفنتهم بها يا حام؟ كيف أخرجتهم يجرون خيبتهم يا سنوحي؟ كيف هزمتهم يا كامل؟ إنه العقل، إنها الخديعة، هي أقوى من أي سلاح، ولكنهم يحتمون خلف الجدران لا في العراء يا حام،

لا في الشوارع يا سنوحي، لا تحت الأشجار يا كامل، إذًا لنخرجهم من البيت أولًا، لكن كيف؟ ".

في اليوم التالي ذهبت قمر الزمان إلى غرفة أحمد فلم تجده، وبحثت عنه في القصر فلم تجده أيضًا، فخرجت إلى الجنة لتفتش عنه فوجدته يجلس تحت شجرة على جانب الينبوع، وعندما اقتربت منه وجدته ينشر غصن شجرة على شكل سهم، فوقفت في هدوء تراقبه دون أن ينتبه لوجودها، وعندما انتهى وضع رأس السهم في إناء كان قد ملأه جازًا، ثم قام بإشعاله، ثم ألقاه على كومة حطب في البر الثاني من الينبوع، فانتشرت النيران فيها حتى ابتلعتها، وسمع صوتًا يقول:

-هكذا نخرج الفئران من جحرهم.

فالْتفت فوجدها أمه، فرد عليها:

-ولكن الجدة محتجزة في ذلك الجحر.

-سنجد حلًا لذلك، ولكن اصنع الكثير من هذه الأسهم.

في تلك الأثناء كان الراعي يفكر كيف يحصل على الجنة، فقد اختطف ياروزيس لتقل هجمات أحفادها عليه ولكنها زادت، وكل يوم يمضي وهي محتجزة عنده يزيد من الهجمات قوة، ووصل به تفكيره إلى أن يتزوجها وحينها يطيعه الأحفاد كما اعتادوا، فدخل عليها غرفتها ليلًا، وقال لها:

-ما رأيك أن تتزوجيني وحينها تخرجين من تلك الغرفة القذرة وأبني لك أفضل القصور؟

-أتزوجك؟! وهل تتزوج الخراف الذئاب؟ وهل تتزوج المرأة إلا برجل؟ أم أن الغربان أصبحت تظن نفسها صقورًا.

-معك حقّ، لا يتزوج الذئب بل يفترس.

ثم دفعها بيده فسقطت أرضًا، ثم ألقى بنفسه فوقها، ومدّ يده إلى حجابها الأبيض ثم مزّقه، وهي تحاول دفعه، وأظفارها تمزق وجهه، ولكنه لم يبالِ للألم، وأخذ يمزق ثوبها، وهي مستمرة في مقاومته ولكن رغم شباب وجهها فإن الحزن قد أضعفها فلم تقدر عليه، وإذْ بصرخة تخرج منها فدوت الجنة بأكملها.

استيقظت قمر الزمان من نومها فزعةً، فهرولت إلى حجرة ابنها وهي تتمتم:

-إنها تتألم.... إنها ترتعش... إنها تموت.... قد قتلوا شبابها، إنها خائفة، إنها...

ضمّها أحمد إليه وحاول تهدئتها، ثم أخذها إلى غرفتها لتعود إلى نومها.

في الصباح وجدوا أمام القصر ثوب ياروزيس الممزّق الملطّخ بالدم ومعه رسالة تقول:

-هذه جدتكم العظيمة صاحبة الأساطير والقصص قد أضفت إليها قصة جديدة، قصة فقدان قدسيتها، قصة فقدان عظمتها، قصة دفنت فيها خلودها كما سأدفنكم إن لم تطيعوني. لم يعد لكم الآن ما تفخرون به، فقد حولته إلى عار سيلاصقكم، ولن تكون لكم قدرة الآن على قتلي لأنني خالد، بل إنني اغتصبت الخلود نفسه.

عندما قرأ أحمد هذا الكلام صرخ في الناس:

-أنحن رجال؟ كيف نمنا بالأمس وهذا يحدث لها؟ كيف كان يأتينا النوم ونحن لا ندري ماذا يفعلون معها؟ فو الله لتكون تلك نهايتهم أو نهايتنا!

كانت ياروزيس في ذلك الوقت تستر نفسها بظلام الغرفة وما تبقى لها من ثوبها الممزق، وقد أخذ قلبها في البكاء لأول مرة على نفسها، ثم أحست بيدٍ تربت على كتفها، فالْتفتت فوجدتها أم مِراي تسألها:

-لِمَ البكاء؟

مِراي يقول إنني ليس لي أم وإنكم وجدتموني في تلك الجنة.

-هو يغار منك يا عزيزتي؛ لأن كل تلك الجنة هي أمك، أليست أفضل من أم عادية مثلي؟

-ولكنها لا تحنو عليّ كما تحنين على، مِراي.

-أخشى يا بنيتي أن تلك الجنة أحنّ من أناس كثيرين ستقابلينهم في حياتك.

وفجأة تختفي الأم والجنة، وتعود الغرفة الموحشة؛ فتتيقن أن ذلك كان وهمًا من ذاكرتها، ثم تتجه بنظرها إلى أعلى قائلة:

-لم أتخيل أن قسوتهم ستكون مؤلمة هكذا.

ثم تعود إلى طورها الأول من البكاء.

خرج أحمد والأحفاد جميعًا من شباب وأطفال ونساء متجهين إلى بيت الراعي، ولكن قسّمهم أحمد إلى فريقين، الأول سيسير في الطريق المعتاد ويهجم على البيت من الأمام، وأما الثاني فسيتجه غربًا ثم يتجه إلى الشمال بمحاذاة الضفة الغربية للينبوع، ثم يلتف ليهاجم البيت من الخلف، كما خصص مجموعة صغيرة مكلفة باقتحام المنزل وإخراج ياروزيس قبل أن تبتلع النيران المنزل، وعندما اقترب الفريقان من البيت استتروا خلف الأشجار والتلال حتى سترهم الليل، فتسللت مجموعة من الفريق الثاني وأشعلت الأسهم وألقتها على سطح البيت وساحته، فحاصرت النيران البيت من أعلى ومن أسفل وأخذ الرجال يلقون بأنفسهم من السطح، والنيران تحاول الْتهامهم، والرجال في الأسفل يلقون بأنفسهم على الأرض ويتدحرجون محاولين إطفاء النيران قبل أن تحولهم إلى حطب، وانتشر الخوف في نفس الراعي ورجاله داخل البيت، فخرجوا متجهين ناحية العراء، وطاردهم أحمد ورجاله والأسهم الملتهبة تهطل عليهم كالمطر، حتى وصل الراعي وقلة من رجاله الناجين إلى بيوتهم في حارة

القداسة فاحتموا بها، ولكن أحمد والأحفاد أشعلوا النيران في البيوت وأخذوا يراقبونها وهي تلتهمهم حتى تحولت تلك البيوت إلى رماد، دفن فيها الراعي وأهله جميعًا.

كانت في تلك الأثناء المجموعة الثالثة قد دخلت إلى بيت الراعي وأخذت تفتش عن ياروزيس قبل أن تلتهم النيران البيت بأكمله، حتى عثرت عليها قمر الزمان- التي انضمت إلى المجموعة دون علم أحمد- جالسة على الأرض في ركن غرفة مظلمة تبكي وثوبها ممزق، فخلعت وشاحها ثم وضعته عليها وضمّتها إليها وأخرجتها من الغرفة مستندة على كتفها، وصرخت على الرجال فقدموا إليهما وحملوا ياروزيس وأخرجوها من البيت الذي تحوّل بعد خروجهم إلى كومة رماد.

عاد أحمد والأحفاد من حارة القداسة، والْتقوا بالفرقة الثالثة ومعهم ياروزيس عند بيت الراعي، فخرج من بين الأحفاد واقترب من ياروزيس ونزل على ركبتيه ورأسه منسدلًا إلى أسفل وقال:

-أعلم أننا لا نستحق الحياة، وسيأتينا الموت اليوم أو غدًا، ولا نستحقك، ولكن سامحينا، فنحن نقوى على فراق الحياة ولا نقوى على فراقك.

لم تدرِ ياروزيس ماذا تقول، ولم تدرِ على أي شيء تسامحهم، هل تسامحهم على ما حصل لها؟ أم على ما حصل لتلك الجنة التي لم يبقَ منها إلا مثل ما تبقى من هذا البيت من رماد؟ أم على أنفسهم التي الْتهمها الضعف والفقر والمرض؟ أم على رجالهم الذين رحلوا إلى الموت؟ هم أكثر جدارة بالشفقة من السماح، فاقتربت منه ووضعت يدها على رأسه وقالت له:

-الأفضل أن يسامحكم الفقر والمرض.

في اليوم التالي اجتمع أحمد إلى الأحفاد، فوزعهم على الجنة شمالًا وجنوبًا، وأمر بأن يقوم كل فرد بزراعة المنطقة المحيطة به، كما جمع مجموعة من أقوى الشباب وكوّن منهم ما أسماه الحُماة، وكلّفهم بالتدرّب على القتال

واستخدام السهام والعصي والسيوف، ليكونوا حماية للحارة من أي معتدٍ، وأرسل مجموعة منهم إلى أطراف الحارة كما فعل سنوحي وحام من قبل، وأعاد تكوين الخفارة ونشرها في الحارة، فعاد إلى الجنة خضارها، وعاد إليهم الأمن، أما ياروزيس فقد اتخذت ثوبًا أسود اللون قائلة:

-الأبيض لا يليق بي يا صابر.

في أحد الأيام طلبت ياروزيس رؤية أحمد فقدم إليها، فسألته:

-كيف حالنا مع الجيران؟

-لم يقترب غريب منا منذ أن ابتلعت النيران الراعي وأهله، وإن سولت نفس أحدهم أن يعتدي علينا فإن الحُماة سيتصدون له.

-وإن غلب الحماة.

-هناك الخفارة والأحفاد.

-وكم حفيد يجب أن نرسله إلى الموت كي نوقف المعتدي.

-.....

-الراعي ترك مجموعة من نساء وأطفال وشباب، ولكن المعتدي القادم قد لا يترك أحدًا، ونحن يا بنيّ محاصرون بالغرباء.

-وماذا أفعل؟

-صادق هؤلاء الغرباء قبل أن يصيّرهم الزمن أعداءً.

-وكيف؟

-أرسل إليهم هدايا مما تمنحه الجنة لنا، ليمتد إليهم خيرها.

-و "أطعم الفم تسْتحِ العين"، لقد فهمتك يا جدتي، وحقًّا أنت أم النساء!

أرسل أحمد هدايا إلى الحارات المجاورة، ومعها رسالة بصداقة معهم والسماح لهم بدخول الحارة لشراء ما يحتاجونه، وطلب أيضًا أن يسمح له

ولأهله بدخول حاراتهم والشراء مما يمتلكونه، وجاء الرد بالموافقة، وبالفعل نشبت علاقة صداقة وتجارة متبادلة بين الحارات.

(٨)

حبيبة

بعد موت أحمد، انتقلت الرعاية إلى ابنه ومنه إلى حفيدته حبيبة، امرأة خمرية البشرة مستديرة الوجه معقوفة الأنف باسمة الثغر، يشعّ منها لطف وجمال، حيث كانت أكبر أفراد الأسرة سنًّا، وأكثرهم حكمة، وبالتالي كانت أجدرهم بالرعاية، ولكن رجال الدين اعترضوا على كون الراعي امرأة، وحرضوا الناس ضدها، ولم تجد حبيبة حلًّا لتلك المشكلة أفضل من حلّ صابر في الماضي عندما تزوج صوريًّا من ياروزيس، فقررت الزواج من أخيها غير الشقيق حَكم، ولم يكن الزواج صوريًّا حيث لم يكن يحرم ذلك في ذلك الوقت، ورزقوا بابنتين وولد - فارق الحياة سريعًا -، وكان لحَكم زوجة ثانية أنجب منها ابنه حكيم، وبالرغم من انتقال الرعاية إلى حَكم بعد ذلك الزواج إلا أنه كان مجرد صورة حيث كان فقير المعرفة بأحوال الأحفاد والحارة وكيفية رعايتهم على عكس حبيبة، فكانت هي الراعية الحقيقية وكانت تصدر أوامرها تحت اسمه.

... كان ذلك العلم والحكمة اللذان تمتلكهما حبيبة ناتجين عن طفولة عامرة بالدراسة .... تسدل الستار ويتسرب شعاع شمس لا تزال في طريقها بين النوم واليقظة من النافذة، ويسقط على عينين صغيرتين استقبلتاه بانكماش، وامتدت يد صغيرة فيها نعومة لم تذهبها الحياة بعد تحاول سحب الغطاء على هذا الوجه العذب، ولكن كيف لها أن تظفر بذلك وهناك يد أخرى تسحب في الاتجاه المعاكس، ولكنها أقوى وأثبت، وها هو الجزء المتبقي من الإزعاج اليومي:

-حبيبة .... حبيبة .... ستتأخرين عن المدرسة.

-اتركيني يا أمي، أريد أن أنام قليلًا.

-لم يعد هناك وقت للكسل، الساعة السادسة.

-لماذا المدرسة في الصباح؟ قولي لهم أن يؤخّروا موعدها ساعتين، أو ربما ثلاث.

-ولِمَ يستمعون إلى كلامي، هل أنا صاحبة المدرسة؟!

-أنت زوجة صاحب الحارة.

-انهضي يا كسول، واحمدي ربك أن أباك ليس هنا، وإلا كان عاقبك.

-حسنًا سأنهض، ولكن لا تخبريه.

-يا لها من رائحة ذكيّة، إن تلك الرائحة هي من تنسيني حلاوة النوم، وتلك الأم المزعجة طاهية بارعة، لا يمكنني مقاومة طعامها، سأنهض وأمري لله.

... المبنى العظيم بساحة القصر حيث يجتمع كل الأبناء فيه، يجلسون على تلك الحُصر الغليظة أمام هذا المعلم الأغلظ، وهو يمسك بعصاه الطويلة المسحوبة من أحد طرفيها، تلك العصا التي تهوي علينا بقسوة لا تفرّق بين ابن خفير القصر وبين ابنة راعي الحارة، ويلقي علينا كلامًا من بحور اللغة حينًا، ومن أنهار الرياضيات آخر، وما أعذب كلامه حين يحدثنا عن الدين والأخلاق، ويا لسحر كلامه عندما يقص علينا الماضي بتلك النبرة الفلسفية، فأستمع إلى قصص صابر ومصون وحام وسنوحي وأحمد وكأنني لم أسمعها من قبل، رغم أنني أحفظها جميعًا، ولربما أفضل منه، ولكنه لا يأخذنا إلى زمنهم بل يأخذنا إلى نفوسهم، فأعود من تلك الدروس المؤثرة، وأنظر إلى أبي وهو يدير تلك الحارة العظيمة، وتلك الفلسفة لا تزال عالقة بذهني فأستطيع أن أفهم تلك الأفعال والأوامر الغريبة التي تصدر منه .

... بعد فترة قصيرة توفي هذا الزوج النحيف الضعيف تاركًا خلفه حبيبة وثلاثة أطفال لتبدأ معركتها ثانية مع رجال الدين والأحفاد حول توليها الرعاية، وكانت مؤامرات رجال الدين هذه المرة بتدبير من حكيم، هذا الطفل الذي يعيش في دار العبادة كواحد من رجال الدين، وبعد عدة أيام من وفاة حكم كان أحد الأعياد الدينية، وتم إقامة احتفال بدار العبادة حضرته حبيبة، وفي الاحتفال قام مجموعة من رجال الدين بحمل منر – تمثال اتّخذه الأحفاد في ذلك الوقت للرمز إلى الإله – والسير به وسط الحضور، وفجأة يتوقف منر أمام رجل دين صغير وكأنه يعلن عن رغبته في مشاركة حكيم الرعاية مع حبيبة .

... وجد الأحفاد أن ما حدث في الاحتفال هو تنصيب لحكيم من قبل منر، وبالفعل ترك حكيم دار العبادة وعاد إلى القصر كزعيم للأسرة الراعية، يصدر الأوامر، ويعارض حبيبة، وسرعان ما تحولت تلك المنافسة على الرعاية بينهما إلى نزاع علني.

... لم تكن حكمة حبيبة لتدعها تترك تلك المسؤولية الكبيرة في يد طفل صغير يتلاعب به رجال الدين من أجل مصالحهم، فقامت بإعداد مكيدة تظهر فيها للأحفاد ضعف هذا الطفل الصغير وعدم قدرته على تحمل تلك المسؤولية، فأرسلت إلى أصدقائها في البيوت الكبيرة الأخرى، ودعتهم للمكوث في القصر مدعية رغبتها في أن يفضوا النزاع بينها وبين حكيم، بينما كان دورهم في الحقيقة هو إشعال النزاع ونقله إلى زعماء البيوت الكبيرة مع إظهار حكمتها في إصدار الأوامر، وحماقة هذا الفتى الذي لا يفعل شيئًا إلا معارضتها، فقام الزعماء بدعمها، وأخذوا يستجيبون لأوامرها ويتجاهلون أوامر حكيم، ومع الوقت تجاهلوه كراعٍ لهم .

... بعد تجاهل الزعماء لحكيم تجاهله الأحفاد، وأصبحت حبيبة الراعية والمسؤولة عنهم، وهتف لها الأحفاد في الشوارع باسم حبيبة منر، وكانت ذكية فحافظت على الصورة المعهودة للراعي عند الأحفاد، فارتدت

جلباب الراعي الواسع المداخل، واتخذت العِمّة، ووضعت لِحْية مستعارة، محولة تلك المرأة الجميلة إلى رجل يظهر من ملامحه الشدة والقوة.

... لم تكن طبيعتها الجميلة المحبة للزهور والألوان ليصدر عنها قبيحًا تجاه حكيم، فأرسلت إليه، فقدم إليها وفي عينيه بعض من عجرفته وسألها بنبرة سخرية:

-بِمَ تأمرني حبيبة منر؟

-ما دعوتك لآمرك، ولو كان كذلك لما كنت هنا الآن، ولكنني وددت أن أتحدث معك.

-هذا من كرم راعيتنا.

-أنت تعلم أن ولدي توفى، وتعلم أيضًا أنك ستخلفني في الرعاية، وضعفك الذي دفعني لأبعدك عنها الآن، لن أسمح له أن يحصل عليها بعد موتي.

-لا تسمحي لخيالك أن يصور لك أنك تستطيعين أن تصيبيني بأذى، فالناس لم يفيقوا من صدمة كون الراعي امرأة بعد، ولن يتحملوا صدمة كونه قاتلًا.

-رغم ما حدث لك لا تزال أحمَقَ، لو وددت قتلك لكنت الآن بجوار حام في الترعة الحمراء، ولكنت أنا الآن أصرخ من حزني عليك كسنوحي، وربما يحولني ذلك إلى بطلة تروى حولها القصص، ولكن هذا لن يفيدني شيئًا، أنا أريد أن أجعلك خليفتي، ولكن خليفتي لا يجب له أن يكون ضعيفًا.

-أنا لست ضعيفًا، وسأخلفك شئت أم أبيت.

-أنت أحمق تمامًا مثل والدك، وما كان لي أن أحدثك كأم مع ابنها، بل وجب أن آمرك كراعية مع أحد رعيتها، سوف تلتحق من الغد بالحُماة.

-لن ....

-انتهى الحديث، اذهب الآن.

بالفعل الْتحق حكيم بفرقة الحُماة الموجودة بالقرب من القصر، وقد أوصت حبيبة قائد الفرقة بعدم التساهل معه، كما عينته في خفارة القصر ليتعلم كيف تدار تلك الحارة.

... بعد أن اطمأنت على الأمور الداخلية للحارة، وجهت نظرها إلى أحمد وما بدأه من علاقات تجارية مع الجيران، واستخدمت ذكاءها في تطوير تلك العلاقات، فأرسلت إلى النجارين تطلب منهم صناعة سفن كالتي تتحدث عنها القصص حول نجاة مِراي، وأرسلت تلك السفن إلى الحارات المجاورة، وعادت تلك السفن محملة بالبخور، والعطور، والتوابل، والجلود، والحيوانات المفترسة، ونباتات وأشجار، وأخرى محملة بالأسماك من نهر الظلمات في الغرب، وأخرى محملة بالأخشاب والأحجار الكريمة والحيوانات من حارة البركة في الشرق .

... لم يكن جدها أحمد مَن جذب نظرها وحده، فالْتفتتْ أيضًا إلى ما فعله مصون، فأرسلت مجموعة من الرجال إلى العراء للبحث عن الأحجار الكريمة، وقامت ببناء دار عبادة في منطقة القصر وزينتها بأعمدة شديدة الطول عالية الجمال، كانت قد صنعت في السوق جنوبًا، ونقلت بالسفن إلى دار العبادة بالقصر.

... لم ينظر الأحفاد إلى أخوم - مهندس دار العبادة - على كونه مجرد مهندس، وأخذوا يرددون شائعات حول وجود علاقة بينه وبين حبيبة، حيث كان من المقربين بها لدرجة أنها جعلته مربيًّا لابنتها حُسْنَة، وقوّى تلك الشائعات هذا النفق الممتد بين مقبرته ومقبرتها، وكان هو من بناهما، وصوروا ذلك بما فعله مصون في الماضي ليخلد بجوار جدته، فكان ذلك النفق ليستطيعا الالتقاء في عالم الموتى.

... عانت في نهاية عمرها من مؤامرات من الحارات المجاورة، والتي اشتعلت بشدة في حارة القداسة وحارة الأسياد، ووصلت إليها أنباء بنوايا للهجوم على الجنة، فقررت اتباع مبدأ " الهجوم خير وسيلة للدفاع "، فأرسلت الحُماة بقيادة حكيم إلى الحارتين، وهناك أدت المفاجأة دورها، واستطاع حكيم السيطرة على الحارتين وضمهما إلى الجنة تحت رعاية حبيبة.

... لم تكن تلك المؤامرات الشيء الوحيد الذي عانت منه في نهاية عمرها، حيث عانت من مرضين خطيرين لم يجد لهما الأطباء في ذلك الوقت تفسيرًا أو علاجًا، وتسبب أحدهما بالنهاية في موتها، وبعد أربعمائة عام صنفت كأول مريضة بالسكري والسرطان.

... تركت بعد موتها سلامًا ورخاءً، وعمودًا لم يصنع من سبقوها أو خلفوها شيئًا في ضخامته وارتفاعه، وكان من المقرر نقله إلى أحد دور العبادة لتزيّنه، ولكنه بقي في السوق لكسر حدث به، كما تركت سر هذا الشيء – قفاز – الذي كانت ترتديه في يديها، ليكشف هذا السر بعد موتها ويكتشفوا وجود ستة أصابع في يدها.

(٩)

... يقولون الأم مدرسة، ويقولون زوجة الأب لا تصبح أمًّا، ولكن حبيبة كانت أعظم مدرسة تخرج منها أعظم وأقوى راعٍ في تاريخ حارة يارو.

... لقد نشأ حكيم على مَسك السيف، وعلمته حبيبة الدرس الذي تعلمته من أحمد " اطعم الفم تستحِ العين "، وأضافت له درسًا في نهاية حياتها " ناس تخاف ماتختشيش "، فسلك طريقًا جمع فيه بين الدرسين في البداية، ثم منحازًا إلى الدرس الثاني بعدها، ولم تكن القصص التي روتها له حبيبة عن أغراب العراء لحام وسنوحي، وراعي أحمد، بالإضافة إلى المؤامرات ضد حبيبة من حارتي القداسة والأسياد لتَمرّ عليه وكأنها لم تكن، وتأكد من خلالها أنه لا خير سيأتي من سكان قرية الأعراب – القرية الواقعة خلف العراء شرقًا، والمحتوية على حارة القداسة والأسياد والبركة وغيرهم– وأنه لن يأتي منهم سوى الدماء، فقرر إكمال ما بدأه مع حبيبة في أواخر أيامها، والهجوم خير وسيلة للدفاع .

... لم يكن حكيم ليمضي في تنفيذ قراره دون استعداد له، وكانت تلك الفترة الطويلة التي قضاها في الحماة والخفارة لتأتيه بفكرة جديدة، فحاول أن يضيف إلى قوة الحماة تنظيم الخفارة، وبدلًا من كونهم مجموعة رجال أقوياء فقط، قسّمهم إلى فرق متخصصة، كل فرقة تتدرب على استعمال سلاح محدد، ولكل منها قائد، وكل الفرق تجتمع تحت قيادته، وغيّر اسمهم إلى الأبطال، كما استفاد ممّا روته له حبيبة عن أحمد وصناعته للسهام المشتعلة، فجمع مجموعة من أذكى الأحفاد وخصص لهم غرفة

بالقصر يقومون فيها بابتكار أسلحة جديدة تعجز الخصوم، وتوصلوا لصناعة سهم ضخم يركب على عربة، ويمكن إطلاقه لارتفاعات ومسافات بعيدة .

... في أحد الأيام بينما هو يتفقّد تدريب الأبطال كعادته جاءته أخبار بتحالف حارة الأسياد وحارة القداسة ضده، وقد اجتمع رجالهم بقلعة مجد في شمال حارة القداسة، والهجوم خير وسيلة للدفاع، وأبطاله جاهزون لهذا الهجوم، فلمَ التردد؟

... جمع أبطاله واتجه بهم إلى قلعة مجد، وكان على خبرة بالطرق إلى القلعة كان قد اكتسبها من الخناقة الماضية، فاتخذ ممرًا ضيقًا بين التلال عوضًا عن الطريق الرئيسي للقلعة، وكان الممر شديد الضيق، وغير ممهد بحيث لم تستطع عربات السهام الكبيرة عبره، فقاموا بتفكيكها إلى قطع صغيرة، وقاموا بحملها، وعندما وصلوا إلى مكان القلعة كان الخصم ينتظرهم عند الممر الرئيسي، فاستغل حكيم ذلك واندفع بأبطاله نحوهم فأرهبتهم الفجأة، ولزيادة تشتتهم ولحصارهم قسّم أبطاله إلى ثلاث فرق، كل فرقة تهجم من ناحية، فوجد رجال القداسة والأسياد أنفسهم في قلب دائرة نصفها أسوار القلعة، والنصف الآخر حكيم وأبطاله، فأسرعوا بالدخول إلى القلعة وأغلقوا أبوابها، واحتموا بها كما تحتمي الفئران في جحورها .

... قام الأبطال بتركيب العربات، وأطلقوا السهام على القلعة، فاخترقت النوافذ واشتعلت النيران داخل القلعة، وذكره ذلك بما سمعه عن أحمد والراعي، وترقب خروج الخصم في أي وقت، ولكنهم لم يخرجوا، فظن أن النيران قد ابتلعتهم، فقرر الانتظار لليل ثم العودة إلى حارة يارو.

... في الليل وبينما الأبطال في نومهم إذْ بسيلٍ منَ السهام ينحدر فوقهم، فنهضوا من سُباتهم وصنعوا من العربات ساترًا؛ ليحتموا خلفه، وعندما استمر تساقط السهام فوقهم، قام حكيم ومجموعة صغيرة معه يتسللون

مع عربتهم إلى فتحة الممرّ الذي قدِموا منه واحتموا به، ثم قاموا بتصويب العربة نحو القلعة، وأطلقوا السهام عليهم، وما هي إلا لحظات حتى توقف سيل السهام، فخرج باقي الأبطال من تحت عرباتهم وصوبوها نحو القلعة، فحوّلوها إلى شمسٍ حوّلت الليل نهارًا.

... أخبرته تلك الواقعة أنّ هناك مكانًا بالقلعة يحميهم من النيران، وليس من الآمن أن يمضي في العودة إلى حارة يارو ظانًّا أنهم في عالم الموتى، وهم في الحقيقة يتبعونهم؛ فيقضوا عليهم، ويتجهون إلى حارة يارو؛ فيسيطروا عليها، فقرر محاصرة القلعة والاستمرار في إطلاق النيران، فإن لم تضطرهم النيران للخروج، يجبرهم الجوع على ذلك، وبالفعل قام بمحاصرة القلعة عشرين يومًا، والنيران فيها لا تنطفئ ساعة، وفي اليوم الحادي والعشرين سقط بجوار قدمه سهم معلق به ورقة كُتب فيها:

-أوقف إطلاق السهام، ودعنا نخرج؛ فنكون من أبطالك وتحت أمرك، ولن يصيبك منا أي أذى.

شكّ حكيم في البداية من أن ذلك فخ، ولكنه أوقف إطلاق السهام، وأمر أبطاله للتأهّب في أي لحظة، واخْتبأ مع مجموعة منهم عند الممر، وانتظروا حتى خمدت النيران، وإذ برجال القداسة والأسياد يخرجون رافعين أيديهم، فأسرع حكيم إليهم وقام بالقبض عليهم، وأخذ ما معهم من أسلحة ثم أطلقهم لأنفسهم، ثم دخل إلى القلعة بحثًا عن موضع اختبائهم فوجد سرداب تحت الأرض عامرًا بالأسلحة، فأشعل النيران فيها، حتى لا يعودوا فيأخذوها.

مضى حكيم وأبطاله بعدها في رحلة من سبع عشرة حملة على أماكنَ متفرقة من قرية الأعراب، وكان كل منها يسقط في يده كما سقطت القلعة، وكانت ياروزيس تنظر إلى ذلك في كرهٍ للخناقات، فتنهض من مجلسها وتحاول الخروج من الغرفة لتنادي أحدهم أن يأتيها بحكيم فتحدثه في

ذلك، ولكنها تتذكر ما حدث لها ولأحفادها وللجنة من الراعي فتقف عند الباب، ثم تعود إلى مجلسها في صمت تامٍ يتخلله بعض دموع الذكريات.

بعد تلك الحملات شعر حكيم بالأمن من ناحية الأعراب؛ فعاد إلى حارة يارو ليُؤمِّن آخرته كما أمن دنياه، فسار على نهج حبيبة، فأمر المهندسين ببناء الكثير من دور العبادة وزينها بالكثير من الأعمدة، كما سار على نهجها في تحقيق العدل والمساواة بين الأحفاد جميعًا، وفي أحد الأيام، بينما هو يتجوّل في ممرات القصر، إذا بصوت رجلين قد دويا المكان، فأخذ في تتبعهما حتى وصل إلى غرفة فض النزاع حيث يقيم القاضي، وإذ برجلين يختصمان عنده، فوقف عن بعد يراقب ما يحدث، فقال أحد الرجلين:

-إن هذا الرجل قد سرق ذهبي، وقد رآه أحد الجيران وهو يخرج من غرفتي.

فرد عليه الآخر وكان على قرابة من القاضي:

-حرام عليك، أتلقي بالتهم على الأبرياء، اذهب وابحث أين ضيعت ذهبك.

فحكم القاضي ببراءة قريبه، ولم يطلب سماع قول الشاهد، وأمر بانصرافهما، فدخل عليه حكيم وقال له:

-لا يرضى الرب بالتحيز، كن يقظًا، فمنصب القاضي عماد الأرض كلها، فليس للقاضي أن يستعبد الناس، استمع للشاكي من الجنوب والشمال وأي بقعة، تصرف بالعدل فالمحاباة يمقتها الرب، كن عادلًا مع من تعرفه ومن لا تعرفه.

فأمر القاضي باستدعاء الرجلين والشاهد، وسمع منه فأقر برؤيته للمتهم وهو يخرج من الغرفة ومعه الذهب، فحكم القاضي بإدانته، وأمره بإعادة

الذهب إلى صاحبه، وأمر أحد الخفر بتأديبه في ساحة القصر؛ ليكون عِبرة لغيره.

تمرّ الأيام، وتأتي الحياة وتذهب، وكما ندخل دار الحياة ندخل دار الموت، توفي حكيم، وبكى عليه كل الأحفاد، وأقيمت له جنازة لم تشهد الحارة مثيلًا لها في ضخامتها من قبلُ، فقد تركَ خلفه عدلًا، وأساليب قتالية تناقلتها الأجيال عبر الزمن والحارات.

(١٠)

حيان

منر، الصورة العاكسة للانحراف عن الحق. بعد أن عاش الأحفاد زمنًا طويلًا يعبدون فيه الله الواحدَ الأحدَ، ظهرت في الفترة السابقة لحام حركاتٌ انحرافية لبعض رجال الدين ومعهم مجموعة من كبراء الحارة، إذ قام هؤلاءِ بتحويل صفات الله وأسمائه المتعددة إلى آلهة مستقلة، كما قاموا بتأليه بعض الصالحين بعد موتهم، وكانت تلك الحركات بدافع التربح المالي لرجال الدين، حيث سيُبنى الكثير من دور العبادة لكل تلك الآلهة، وسيجمعون الكثير من الصدقات من وراء ذلك، وتربحًا سياسيًّا لكبراء الحارة، حيث ستشتعل نزاعاتٌ دينية بين الأحفاد تشغلهم عمّا يفعله هؤلاء الكبراءُ، وكان من السهل أن ينخدع الكثير من الأحفاد تحت سحر التدرج البطيء في التغيير، أما البقيةُ فقد أخفوا إيمانهم بالتوحيد خشيةَ بطش الكبراء ورجال الدين ومن يتبعهم من الأحفاد، ورغم وجود ياروزيس شاهدة على بطلان ما يفعلونه، وشاهدة على التوحيد -الدين الحق-، إلا أن الحق أحيانًا لا بد أن يُعتزل من أجل المصالح، فعُزلت عن الأحفاد، ورُددت إشاعات بالخرف المصاحب لكبر السن.

بعد حكيم، تسلسلت الرعايةَ في أسرته حتى وصلت إلى مخلص، وبصفته الراعي كان يمكنه زيارة ياروزيس، ورغم ما سمعه عنها من إشاعات فإن تلك الإشاعات لم تستطع أن تمحوَ القصص الجميلة عن ياروزيس من ذاكرة الناس، فكان أول ما فعله بعد توليه الرعاية هو زيارتها، وعندما دخل غرفتها قالت له:

-لا بد أنك الراعي الجديد.

-وكيف عرفتِ؟

-لم يدخل تلك الغرفة من بعد كَلْبَي الراعي إلا الراعي.

-أنت تبدين خلاف ما يشاع عنك.

-إنني أصابني خرف الكبر؟ قالوا في الماضي: إنني لا أشيب ليتفاخروا بي، والآن يرددون أنني أصابني خرف الكبر؛ ليسلموا مني.

-يسلموا منك! أنت لم تؤذ أحدًا أو كائنًا طيلة عمرك، واعذريني أنت لا تقوين على إيذائهم.

-ولكن الحق يجرح ويقتل أحيانًا.

-أيّ حق؟

-يبدو أن الكذبة التي افتروها، قد صُدقت وتوارثها أبناؤهم على أنها الحق، اجلس فأحدثَك، فإما تصدقني أو تخرج لتردد مثلهم أنني أخرف.

قصت ياروزيس على مخلص ما فعله رجال الدين والكبراء قديمًا من تزييف وتحريف واختلاق في الدين حتى صيّروه من التوحيد إلى تلك الصورة الموجودة الآن، فلم يصدقها في البدء، وكان من الطبيعي ألا يصدقها، ولكن ربما النور في قلبه خبّره أن ذلك هو الصدق، فخرج من عندها ولم يقل شيئًا.

لم تستطع ياروزيس معرفةَ رد فعل مخلص على ما سمعه إلا عندما وجدت نفسها تنتقل من القصر إلى منزل مِنعه، وذكّرها ذلك بمصون، حيث كان قد بنى ذلك البيت لمربيته مِنعه، فتبسمت لتلك الذكرى الجميلة رغم جهلها بسبب هذا الانتقال، وعندما وصلت، وجدت مخلصًا فسألها:

-ما رأيك في هذا البيت؟

-إنه يذكرني بمصون.

-وإيمانه الكبير، هنا يا جدتي سنبدأ عهدًا جديدًا من التوحيد بعيدًا عن القصر وما يحوطه من دور عبادة لآلهة باطلة.

سُرت ياروزيس بهذا الخبر بعد أن كان قد هجرها السرور بعد حادثة الراعي، وخلعت حجابها الأسود وبدلته بآخر أبيض، ولكنها احتفظت بالعباءة السوداء حتى لا يخدعها البياض مرة أخرى.

اجتهد مخلص في الدعوة إلى التوحيد ومعه ابنه حيان، وبنى دار عبادة بجوار بيت مِنعه، واستجاب له الكثير من الأحفاد، ولكن سريعًا ما تغرب الشمس.

توفي مخلص فتولى ابنه حيان الرعاية، وكان طفلًا في التاسعة من عمره، استغل رجال الدين ذلك الصغر والضعف وسيطروا عليه، واستطاعوا من خلال مربيه آي- الذي وصل إلى تلك المنزلة بعدما استجاب لدعوة مخلص للتوحيد، بعد أن كان عاملًا بالإسطبل- أن يقنعوه بالعودة إلى القصر، وبعودته إلى القصر عاد كل شيء إلى ما كان عليه، فعادت ياروزيس إلى معتزلها، وعاد الأحفاد إلى كتمان إيمانهم، وهُدمت دار العبادة التي بناها مخلص، وغيّر حيان اسمه إلى حيان منر، وكأن شيئًا لم يحدث.

كان حيان يتكئ على عصا في سيره بسبب ضمور في قدمه اليسرى، وكان يجلس على كرسي في أثناء التدرب على رمي السهام؛ لذلك كان مربيه آي يلازمه دائمًا، ومن خلال التدرب مع الأبطال كوّن صداقة مع محب زعيم الأبطال، وكان حيان لصغره وقلة خبرته يأخذ بمشورتهما ونصائحهما في إدارة الحارة إيمانًا منه بصدق وإخلاص الصداقة، ولكنه كان كحام الصغير وكانا هما سنوحي، ففي أحد الأيام، بينما ثلاثتهم مجتمعين في غرفته بالقصر للتشاور في مسألة ما إذا بآي يقول له:

-يعجبني كثرة عصيك.

ثم يرد عليه محب وهو يمسك بإحداها:

-ولها ثقل عظيم.

ويكمل آي بعد أن أمسك واحدة:

-حقًا إنها لقوية.

فيجيبها حيان بابتسامة:

-يكفي ضعف قدم...

وقبل أن ينهي الكلمة إذ بضربة تهوي على رأسه، وأخرى على فخذه، ثم دخل في حالة من انعدام الشعور، ثم رأى والده "مخلص" يمد إليه يده فأمسك بها وسارا في طريق طويل حتى وصلا إلى جنة عظيمة، فسأل حيان:

-هل هذا منزلنا الجديد؟

-إني أخشى أنك لن تتمكن من الدخول.

وفجأة تختفي الجنة والأب ويعم ظلام شديد، لقد فارق الحياة كما فارقها حام، ولكن على من سيلقي سنوحي اللوم هذه المرة؟

خرج آي ومحب من الغرفة يبكيان ويصيحان على موت صديقهما، واستغلا مرض الملاريا الذي كان منتشرًا في الحارة، وقالا أنه كان قد أصيب بالمرض منذ فترة وأن المرض قد فتك به وقتله. وإظهارًا لحبهما له، صنعا له سبعة توابيتَ متداخلة بعضها في بعض، الثلاثة الخارجيون من الخشب المرصع بالذهب، والأوسط من الحجر وقد نحت على شكله، والثلاثة الداخليون من الذهب، وقد صنعوا على شكل حيان، كما صنعوا له قناعًا من الذهب، ودفنوا معه الكثير من الأحجار الكريمة والحلي، ودفنوا معه أيضًا عصيه الكثيرة التي وصل عددها إلى مئة عصا، ورغم عدم وجود ما يروى في حياته فإن تلك المقبرة المحتوية على كل تلك الكنوز كانت كفيلة لجعل اسمه يتردد مع صابر ومصون وحام وسنوحي

وأحمد وحبيبة وحكيم، وقاما بحرق غرفته وكل شيء متعلق به؛ خوفًا من انتشار العدوى.

(١١)

بعد وفاة حيان، انتقلت الرعاية إلى آي لتزوجه زوجةَ حيان، ولم يُعرف السبب الذي جعلها توافق على هذا الزواج، الأمر الذي لم يرق لِمحب، وأخذ كلاهما في التدبير للتخلص من الآخر، فآي لا يأمن غدر محب، ومحب يريد الرعاية لنفسه، ولكن التخلص من آي لن يكون سهلًا كالتخلص من حيان.

في أحد الأيام، بينما يتجول محب في ممرات القصر وجد أحد الخدم حاملًا طبقًا فضيًّا فوقه كوب عصير، وذاهبًا به إلى آي فأتت له فكرة التخلص منه على طبق من فضة، فأخذها منه على أنه ذاهب إليه وسيأخذها معه، وعوضًا عن الذهاب إلى غرفة آي، ذهب إلى غرفته وأخرج من خزانته كيسًا به مسحوق أبيض قام بإفراغه في الكوب، وخلطه مع العصير، ثم خرج من غرفته واتجه إلى أحد الخدم وأمره أن يأخذ الكوب إلى آي، ثم تتبع الخادم دون أن يراه إلى غرفة آي، ووقف بالقرب من الباب، وسمع آي وهو ينهر الخادم لتأخره، ثم خرج الخادم من الغرفة، فاتجه محب إلى الباب وأخذ يسترق السمع حتى سمع صوت سقوط على الأرض؛ فدخل الغرفة مسرعًا، وأغلق الباب خلفه، فوجد آي مُلقى على الأرض بينما روحه في السماء. أخرج جُوالقَ من جيبه ووضع جسد آي به ومعه الكوب، وقام بربطه، ثم وضعه أسفل السرير وانتظر الليل. عندما ستره الظلام حمل الجوالق على ظهره وخرج به من القصر دون أن يراه أحد، واتجه به إلى الخلاء، ثم أخرجه من الجوالق، وأخرج سكينًا من جيبه، وبدأ في تقطيعه، وتشويه وجهه حتى لا يتعرف عليه أحد إن وجده، ودفن كل

قطعة من جسده في مكان بعيد عن الآخر، ثم خلع ملابسه الملطخة بالدم ودفنها هي الأخرى، وارتدى ملابسَ نظيفةً كان قد أحضرها معه، ونفض عن وجهه وشعره الترابَ، ثم عاد إلى غرفته بالقصر ونام.

استيقظ محب في الصباح على صخب، فالكل يبحث عن آي، فخرج من غرفته وسأل أحد الخدم:

-ماذا يحدث؟

-إن الراعي آي مفقود، والكل يبحث عنه.

فأخذ محب يبحث معهم عن آي، ويجتهد في بحثه وكأنه لا يعلم أين هو، واستمر البحث عِدة أيام ولم يجدوا حتى ما يفيد أنه مات، فيئِسوا من إيجاده، وقرروا إعداد مراسم التزويج، وتولى محب بصفته قائدَ الأبطال الرعايةَ لحين اختيار الزوج الجديد لياروزيس، وأخذ يؤخر ويعطل عملية الزواج بدون أن يظهر أنه السبب، ثم رشى بعض رجال الدين والكبراء ليتجاهلوا عملية الزواج، ويبقونه في الرعاية، وبالفعل ظل في الرعاية كآخر أفراد أسرة أحمد.

كان أول ما شغله هو إعادة الخفارة التي تفككت وضاعت أثناء ثورة مخلص الدينية ونزاعها مع رجال الدين؛ ليحكم سيطرته على الحارة، كما سنَّ أوّل مرة في التاريخ قوانينَ لضبط حياة العامة، حيث في أحد الأيام استيقظ مفزوعًا على صوت صراخ وضرب على باب غرفته، فنهض من فراشه واتجه إلى الباب، وفتحه فوجد صبيًّا يبكي بشدة، وألقى بنفسه على الأرض، وتعلق بثيابه، وأخذ يتوسل إليه بكلام غير مفهوم، فنزل محب على ركبتيه، وضم الصغير إليه ليهدأ روعه، ثم سأله في هدوء:

-ماذا بك؟

فأجابه الصبي والدموع تقطع الكلام:

-إن رجـ...ـلًا من الأبـ... ـطال يضرب أبي؛ لأنه ر. فض إعطـ.. ـائه قمحًا.

- وهل أبوك مدينٌ له؟

-لا،

-تعال أرني أين هم؟

أخذه الصبي إلى كوخهم المقام في ساحة القصر، وهناك رأى الرجل وهو يضرب الأب الضعيف بالعصا وقد سالت منه الدماء، فاقترب منه وأمسك العصا بيده، ثم سأل الأب:

-هل أنت مدين له؟

-لا، يا سيدي.

-إذًا لماذا يضربك؟

-أنا لا أعرف، لقد قدم إليّ وطلب قمحًا، وعندما سألته عن السبب قال إنها ضرائب، فخبّرته يا سيدي أني دفعتها أمسِ، فانهال عليّ بالضرب.

نادى محب على أحد الخدم، وأمره أن يحضر له مسؤول الضرائب، وعندما قدِم سأله:

-هل دفع هذا الرجل الضريبة؟

-نعم، يا سيدي.

-وكم دفع؟

-دفع عشرة أكيال من القمح.

فقاطعه الرجل قائلًا:

-بل دفعت خمسة عشر كيلًا.

غضب محب ودعا الخفر، وأمرهم بالقبض على الموظف والبطل وإحضارهما إلى الساحة الكبيرة، وأن يُدعى الناس جميعًا للحضور، وعندما اجتمع الناس اتجه إلى البطل وبيده سوطًا، وأمر الخفر بأن يقيدوه في شجرة بدون ثياب، ثم قال له:

-إن هذا الجسد القوي الذي يدفعك لإرهاب الضعفاء، سوف تقطعه ضربات هذا السوط؛ ليذكرك الألم أن تفكر ألف مرة قبل أن تعتدي على الناس بغير حق.

وقام بجلده مِئة جلدة حتى تحول لون جلده إلى الأحمر من الدماء، ثم اتجه إلى الموظف ومعه حجر صلب وقال له:

-إن سلطتك هي لمصلحة الناس، لا لترفع عليهم أنفك متكبرًا وأنت سارق.

ثم ضربه بالحجر على أنفه فكُسرت، وأمر الخفر أن يخرجوه خارج الحارة وألا يسمحوا له بالعودة، ثم خطب في الناس قائلًا:

-أي مسؤول يتخذ سلطته لسرقة الناس فسوف أكسر أنفه، وسيطرد خارج الحارة، وأي بطل تدفعه قوته لتعذيب الناس فسيجلد مئة جلدة.

ثم اتجه بحديثه إلى القضاة:

-لا تأخذوا الرشوة من أحد وإلا كيف يمكن الحكم بالعدل إذا كنتم أنفسكم جناة على القانون.

بعد فترة من توليه الرعاية، توفي محب، فدفن بمقبرة كان قد بناها بجوار مقابر الرعاة السابقين، وكان قد رشح قبل موته صديقه من الأبطال وليد لزواج ياروزيس، وبالفعل أعدت مراسم الزواج لوليد، لتولد معه أسرة راعية جديدة.

(١٢)

وليد

تدرجت الرعاية في أسرة وليد حتى وصلت إلى حفيده وليد، وكان شابًّا في الرابعةَ عشرة من عمره، ولكنه كان قويًّا، ماهرًا في ركوب الخيل واستخدام السيف والسهام، وقد ورث تلك المهارات من جده وأبيه فكلاهما كانا من الأبطال.

في أثناء انشغال مخلص بثورته الدينية، وانشغال آي ومحب بصراعهم على السلطة، اتحدت حارة الأسياد وحارة الجمال والحارة الشمالية من قرية الأعراب تحت زعامة واحدة، وكوّنوا عصبة أطلقوا عليها اسم عصبة نِسيا، وقد أغرتهم تلك الوحدة والقوة؛ فهجموا على حارة يارو والحارات الموالية والتابعة لها عدة مرات، واستطاع جد وليد وأبوه أن يتصدوا لتلك الغارات حتى ماتا وبقيت هي على قيد الحياة.

عندما تولى وليد الرعاية بنى بيتًا كبيرًا فوق أنقاض بيت الراعي؛ ليكون قريبًا من العراء وهجمات (النسيين)، وانتقل وأسرته ويا روزيس للعيش في ذلك البيت، وعلى الرغم من التنقل المستمر ليا روزيس طيلة عمرها فإن هذا الانتقال كان كريهًا إلى قلبها، وعندما دخلت البيت لأول مرة انتشر في جسدها رعشة قوية، وأخذت تشعر بالبرودة، وأخذت خطواتها تتقهقر، وتأبى الدخول؛ فاقترب وليد منها وقال لها بصوت منخفض:

-هذا البيت يجب ألا يشعرك بالضعف بل بالقوة، فقدمك الآن تخطو فوق رأس الراعي.

هدأت تلك الكلمات روعها، واستعادت السيطرة على عقلها، ودخلت إلى البيت، واتجهت إلى غرفتها، وبدا للجميع أن الألم قد فارقها، ولكنه لا يزال يسكن قلبها.

اتجه وليد مع أبطاله إلى قرية الأعراب؛ باحثًا عمّن يتقوى بهم ضد النسيين، واستطاع ضمّ حارة القداسة وعدة حارات أخرى إلى صفِّه، وعاد من هناك ومعه ألف رجل.

كما اتجه مع أبطاله والرجال الذين انضموا إليه من قرية الأعراب نحو حارة الأسياد، وخيّم بالقرب من حدودها حتى يستعلم عن موقع تجمع النسيين، وبينما هو في خيمته إذ برجلين من النسيين يدخلان عليه، ويدعيان أنهما هربا من النسيين ويودان الانضمام إليه، فسألهما وليد عن مكان رجال النسيين فأخبراه أنهم مجتمعون في شمال حارة الأسياد بالقرب من الحارة الشمالية، فأخذ وليد إحدى فرقِه الأربع واتجه إلى شمال حارة الأسياد، وحينَ هو في طريقه، تأتيه الأخبار بأن النسيين قد هجموا على باقي الفرق في الجنوب، وتمكنوا من القضاء على إحداها، فالتف وليد عائدًا إلى الجنوب، ولكنه اتخذ طريقًا آخر غير الذي أتى منه ليفاجئهم، وعندما وصل، انقض عليهم وأبطاله من الشمال، بينما باقي الأبطال من الجنوب، ووجد النسيون أنفسهم في الحصار؛ فألقوا بأنفسهم في الترعة، وأخذوا في السباحة وسهام وليد تهطل فوقهم.

مكث وليد في المخيم حتى تم معالجة الجرحى، ثم اتجه وأبطاله بمحاذاة الترعة شمالًا؛ ليلحقوا بالنسيين، وبينما هم يمرون بين التلال إذ بسيل من الحجارة ينهال نحوهم، فركضوا عائدين إلى خلف والحجارة تعدو خلفهم، واستطاع بعضهم النجاة، وبعض منهم ردم بالحجارة.

لم يضعف ذلك عزيمة وليد، واتجه مع من بقيَ من أبطاله إلى التلال، ومكث على بُعدٍ عنها، واستخدم عربات السهام المشتعلة، وأطلقها على

التلال حتى تحولت إلى جمرة مشتعلة، وعندما بدأت النيران في الخمود عبر هو وأبطاله التلال، واستمروا في السير حتى وصلوا إلى خيام النسيين، وهناك شبّت خناقة عظيمة؛ رجال تقطع السيوف رؤوسَهم، ورجال تخترق السهام قلوبَهم، ورجال تشويهم النيرانُ، ورجال بين ضربات عصا وحجارة، وارتوت الأرض بدماء النسيين والأبطال، حتى صاح زعيم النسيين:

-أوقفوا الخناقة قبل أن توقفنا.

وسرعان ما استجاب النسيون له، والأبطال لم يكونوا ليقاتلوا رجلًا ألقى سلاحه أرضًا، وتوقفت الخناقة، واتجه زعيم النسيين إلى وليد، وصحبه إلى خيمته، وهناك عقدا أول جلسة صلح في التاريخ، بعد خناقات استمرت عامًا ونصف.

بعد توقف الخناقات مع النسيين، ظن وليد أن الحياة ستكون آمنة إلى أن وجد الناسَ في أحد الأيام تصيح وتولول، وعندما استعلم عن السبب علِمَ أنهم قد سُرقوا، وأن اللصوص قد أتوا في قوارب عن طريق الترعة، فأحضر وليد القوارب التجارية، وبدل تحميلها بالبضائع. حملها بالأبطال، وجعلها تسير في الترعة ليلًا وكأنها في رحلة تجارية عادية، وما هي إلا عدة ساعات حتى هجم اللصوص على القوارب، فانقض عليهم الأبطال، وقضوا عليهم جميعًا، ثم أخذ من بقي منهم على قيد الحياة إلى شوارع الحارة؛ ليعود الأمن إلى أنفس الناس.

بعد أن عاد الأمن إلى الحارة، اتجه وليد كمَنْ سبقه مِنَ الرعاة إلى بناء دور للعبادة، فبنى واحدًا في منطقة القصر، وآخر في منطقة السوق، وكانت الشمس تشرق على نقوشه الذهبية في مظهر عظيم وجذاب يحتشد الناس لرؤيته.

كما ندخل إلى الحياة نخرج منها، توفى وليد بعد أن احتفل بعيد سِد الرابع عشر - عيد يقيمه الأحفاد للراعي بعد مرور ثلاث سنوات على توليه الرعاية، ثم يكررونه مرة كل أربعة أشهر- ليفوق بذلك كل الرعاة، وقد مجّده الأحفاد، واعتبروه أقوى وأعظم راعٍ، وسموه (الجد الأعظم).

(١٣)

في كهف الأساطير، إحدى حارات قرية كهوف الأطماع الواقعة شمال الترعة البيضاء، شمال حارة يارو، وتلاصق الحارة الشمالية من قرية الأعراب، وفي بيت الأعور زعيم الحارة، تسبح امرأة شديدة الجمال ممتلئة الرحم في أحلامها، وتشاهد في حلمها صاعقة تضرب رحمها، فتولدت نار انتشرت في كل مكان، فوثبت من نومها فزعة، فنهض لفزعتها الأعور، وقصت عليه حلمها، فأراد أن يطمئنها فأخبرها أن ذلك كان إله البرق يبارك لها جنينها، ولاقت تلك الكلمات من الزوجة استحسانًا، وأخذ وجهها بالإشراق، وأخذت تروي تلك القصة لكل من تعرفه حتى أهداها المخاض ولدًا اسمته الكبير ؛ إيمانًا منها بكبر شأنه حيث بورك من الرب .

... عندما تقدم بالكبير العمر، بحث والده في الحارة عن معلم له حتى دلّهُ الناس على معلمٍ ذي باعٍ كبير في العلم يدعى رستم فدعاه إلى بيته، وعندما قدِم رستم أخبرهُ الأعورُ بطلبه فرفض؛ فغضب الأعور، وقال له:

-أترفض لي طلبًا، ألا تعلم من أنا؟

-أنت الأعور زعيمنا، وهادم بيتي، ومشرد أهلي.

-بماذا تخترف أيها الأحمق؟

-لو كنت أحمقَ ما دعوتني هنا، ربما لا تذكر من كثرة البيوت التي دمرتها، ولكن إن وددت أن أعلم ابنك فعليك أن تعيد بناء بيتي، وتعفو عمن سجنته من أهلي، وفوق ذلك تبني لي معبدًا اتخذه مدرسة لتعليم الناس.

تغلبت الأبوة هنا على الزعامة، فكتم الأعور غضبه، ووافق على شروط رستم، ونفذها له.

لازم الكبير رستم عدة سنوات تعلم منه فيها الكثير من الأشياء في الدين والأخلاق، والفلسفة والمنطق، والطب والفن، كما تعلم القراءة والكتابة، وبرع في العزف على القيثارة.

لم يكن رستم المعلم الوحيد في حياة الكبير، فقد تعلّم أيضًا من والده، ولكنه تعلم منه الصيد، والمصارعة، وركوب الخيل، وفي أحد الأيام أحضر أحد التجار خيلًا بريًّا لم يروض إلى الأعور، وعندما حاول الأعور ترويضه أخفق في ذلك؛ فأمر الخدم بذبحه. وقبل أن ينفذ الأمر، طلب الكبير أن يحاول ترويضه، فسمح له والده، فاتجه الكبير إلى الخيل، وأخرجه من الإسطبل، ثم أخذه إلى ساحة البيت حيث الأشجار والأعشاب الخضراء. وشرع يمسحُ على رأسه، وعنقه، ثم وثب فوقه، ولكن الخيل وقف على قدميه الخلفيتين وأسقطه أرضًا؛ فنهض الكبير وهو يضحك! ثم اتجه إلى الخيل ثانية، وكرر ما فعله من محاولة التقرب إليه، ثم وثب على ظهره مجددًا، ففزع الخيل مجددًا، ولكن الكبير استمر في المسح على رأسه حتى هدأ الخيل، ونجح الكبير في امتطائه، وما هي إلى عدة ساعات حتى أصبح الخيل كالمروض منذ سنين، فبكى الأعور واتجه إلى الكبير ثم قبّله، وقال:

-يا بني عليك أن تجد عزبة تسع طموحك، إن كوخ الأساطير لصغير جدًا عليك.

كان للكبير أخ غير شقيق يعاني من إعاقة ذهنية، وكانت أم الكبير من أسرة بسيطة، فخشي الأعور أن يرفض الناس زعامة ابنيه بعد موته، فقرر الزواج بامرأة من أسرة عالية النفوذ، وطمع أن يرزق منها بولد يخلفه، وفي أثناء العرس قام أخو العروس بمضايقة الكبير، وتسبب في نزاع بينه وبين أبيه، ما جعل الكبير يكن الحقد له.

خابت آمال الأعور؛ حيث رزق فتاة، فصالح الكبير؛ حيث لم يبق غيره أمامه ليخلفه، ومرت الأعوام وقتل الأعور في أثناء حضوره حفل زفاف ابنته مجيدة الأب، وخلفه الكبير في الزعامة، وكان أول ما فعله هو إعدام ابن عمه وشقيق زوجة أبيه، التي قامت أمه بإحراقها هي وصغيرتها.

لم يكن الكبير محبًّا للسلم كوالده، وإنما كان يفضل الخناقات، وكان يصدق تمام الصدق أنه هو النار التي رأتها أمه تلتهم العالم، وأنه ابن إله الرعد، وأنه خير من كل هؤلاء الناس، فجمع أقوى الرجال في كهف الأساطير، وخرج من الحارة متجهًا إلى قرية الأعراب.

كانت ياروزيس في تلك الأثناء تبكي على ما يحدث في حارتها من خناقات بين الأحفاد وأهل حارة آري الذين قدموا من قرية الأعراب للسيطرة على الحارة التي عاشت تسعة عشر عامًا تحت زعامة الأحفاد حينًا، وزعامة أهل آري حينًا آخر.

مضى الكبير إلى قرية الأعراب، والحارات تسقط في يده واحدة تلو الأخرى، بالقوة أو بالخوف، حتى وصل إلى حارة القداسة، فخرج زعماؤها جميعًا، يظهرون ولاءهم وتسليمهم له إلا زعيم بيت العزة، فاتجه الكبير برجاله إلى بيت العزة، وأشعل النيران فيه، فخرج سكانه والنار تلتهمهم. وكلما خرج رجل من النار قتله سهم من سهام الكبير. وكلما خرج طفل أو امرأة أمسك به، وعندما خرج زعيم البيت أمسك به، وربط قدمه بحبل، في فرس، وأمر أن يجرّه الفرس في شوارع الحارة حتى يموت، أما الأطفالُ والنساء فقام ببيعهم للأغنياء للخدمة في البيوت.

بعد ما فعله في حارة القداسة اتجه إلى حارة يارو، وعندما وصل إلى العراء، لم يجد أحدًا لا من الأحفاد، ولا من أهل آري؛ فعجِبَ من ذلك، ثم مضى في سيره حتى وصل إلى البيت الأبيض، فخرجت الأسرة الراعية لاستقباله، ونادوا باسمه، وتعاملوا معه كمحرر لهم من أهل آري، حيث

كان الأحفاد على علم بالعداوة الكبيرة بينه وبين أهل آري الذين فروا من الحارة عند سماعهم بقدومه، بعد ذلك سار الكبير بمحاذاة الينبوع متجهًا إلى الشمال حتى وصل إلى الترعة البيضاء، فراقَه المكان، خاصة أنه يذكره بحارته، فبنى بيتًا على شاطئ الترعة وسمّاه بيت الكبير.

في أثناء بناء البيت اتجه إلى دار عبادة منر، فرحب به رجال الدين، واختاروه زوجًا لياروزيس، وابنًا لمنر، ووضعوا على رأسه عمامة يخرج من جانبيها قرني كبش، ولقبوه بالكبير ذي القرنين ابن منر وإله الرعد.

لم يكن ذلك الزواج محببًا لدى ياروزيس، فهي لم تُرِد يومًا أن تتزوج بعد مِراي، ولكن خوفها على أحفاد مِراي، ما جعلها تقبل به، ولولا ذلك لرفضت هذا الزواج.

لم يكن الكبير غبيًّا ليتعامل مع تسليم الأحفاد له على أنه ضعف، فهو يعلم جيدًا ما فعلوه بالراعي، وما فعلوه بأهل قرية الأعراب، وما عاناه أهل آري في أثناء مكوثهم في حارة يارو، فقرر أن يعاملهم بما لا يغضبهم عليه، ووزع المناصب بينهم وبين رجاله من كهف الأساطير.

وقد توفي في أثناء زيارته إلى حارة الترعة، ووضع جثمانه في تابوت ذهبي، وحمله رجاله واتجهوا به إلى كهف الأساطير، ولكن صديقه ليموس اعترض طريقهم، وحول سيره إلى حارة يارو، ودفن بالقرب من بيت الكبير، ليترك الحياة وله أكثر من عشرين بيتًا يحملون اسمه في حارات مختلفة.

(١٤)

ليموس

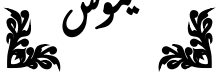

بعد وفاة الكبير تنازع أصدقاؤه على خلافة تلك العزبة العظيمة التي تركها وراءه، واتفقوا في النهاية على تقسيمها، وكانت حارة يارو من نصيب ليموس.

كان ليموس يعلم أن كونه صديق الكبير لن يشفع له عند الأحفاد، وأن ما فعله الكبير من ولاء وإيمان بمقدساتهم هو ما أبقاه زعيمًا عليهم، فسار على نهجه، فقام بالإنفاق على ترميم دور العبادة، وشارك في جميع المناسبات الدينية، وأخذ في التقرب من الأحفاد حتى أحسوه واحدًا منهم، فأبقوه زعيمًا عليهم، وقاموا بمراسم التزويج الصوري له، ليصبح هو وأسرته أول أسرة راعية ليست من الأحفاد.

كان الأحفاد يعتمدون على ما تهبه الجنة لهم حتى ابتدع سنوحي الزراعة، ومع الوقت ازداد عدد الأحفاد، كما زاحمهم سكان جدد من الحارات المجاورة، وأصبح ما تهبه الجنة وما يزرعونه غير كافٍ، وكان ذلك يهدد بقاء ليموس وأهله في الحارة؛ لأن وجودهم أصبح عبئًا على الأحفاد، وشغله التفكير في ذلك الأمر عن أي شيء آخر دون فائدة، حتى أشار إليه أحد أصدقائه بالنزول إلى الأراضي المزروعة بالجنة لعله يهدى إلى الحل، وظل ليموس في زيارة الأراضي يوميًّا حتى أتمّ عامًا، ووجد أن الأراضي تترك خالية نصف العام، وعندما استعلم عن السبب، أخبره أحد الفلاحين أن ياروزيس حزنت على ما أصاب الجنة بعد خناقة سنوحي مع الأغراب، وبكت حتى وصلت دموعها إلى الينبوع، فرد على بكائها ببكاء غمر الأرض فنمت عليه الحبوب التي غرسها سنوحي وعاد إلى الجنة

خضارُها، ولياروزيس بهجتُها، وكل عام، في الوقت نفسِه يفيض الينبوع بدموعه لتبتهج ياروزيس، ونحن نغرس البذور وننتظر دموعه.

بعد ما سمعه ليموس من الفلاح، علِمَ أن المشكلة في التقيد، وأن الحل والسلام لا يأتيان إلا بالتحرر، وأخذ يفكر في طريقة يحصل منها على دموع الينبوع دون أن يبكي، وفي أحد الأيام استيقظ فزعًا لحلم رأى فيه الجوع قد انتشر، والجنة قد اختفت، وتحول الأحفاد إلى مفترسين يطاردونه حتى انتهى به الأمر أن وجد نفسه في إناء طهي وقد قطع إلى أجزاء منفصلة، فخرج من البيت وأخذ يتجوّل حول البيت وهو ينظر إلى الجنة، كأنه يقول لها لا تذهبي فتتركينا يفسد الجوع ما قد بنيناه من سلام، وإذ بأشعة الشمس المشرقة تجذبه إلى لآلئ تلمع فوق أوراق الأشجار، فاقترب منها فوجده الندى قد سجنه تقوص الأوراق، فجاءته فكرة النجاة.

اتجه مسرعًا إلى خفارة بيت الكبير، وطلب منهم أن يجمعوا فلاحي الحارة كلهم، وعندما قدموا سألهم:

-هل يمكن زراعة الأرض مرتين في العام؟

فأجابه أحد الفلاحين:

-إن بكى الينبوع مرتين في العام.

فرد عليه ليموس:

-أو إن سجنَّا دموعه الزائدة، وأطلقنا سراحها وقت الحاجة.

-وكيف ذلك؟

-نحفر بموازاة الأراضي حفرًا نجمع فيها المياه الزائدة، وبعد جني المحصول الأول نستخدمها في زراعة المحصول الثاني.

أعجب الفلاحون بفكرة المحصولين حيث سينتهي الجوع تمامًا، وبالفعل سارعوا بالحفر قبل أن يحين موعد بكاء الينبوع، وعندما فاض بدموعه

تجمعت المياه في الحفر، وبالفعل زرعوا محصولًا ثانيًا في العام نفسه، وامتلأت البطون حتى شبعت، واختفى صوتها، واختفت معه كوابيس الخروج من الحارة.

كان أهل كهف الخرافات يحبون لحم الخنازير، وكانت الخنازير غير موجودة في حارة يارو؛ لأنها كانت محرمة عند الأحفاد، وكان من الصعب شراؤها من الحارات الأخرى؛ لأن التجارة في حارة يارو كانت لا تزال بالمقايضة، ولا يوجد ما يقايض به فهو بالكاد حل مشكلة الجوع في الحارة، ففكر بمساومة الذهب، ولكن الخنزير الواحد سيحتاج إلى الكثير من الذهب ليقايض به، وهذا الذهب نادر بينما الخنازير كثيرة، ففكر في حيلة يحصل منها على الخنازير بالقليل من الذهب، فذهب إلى العمال وطلب منهم صناعة قطع صغيرة مستديرة من الذهب موحدة الحجم، وأطلق عليها اسم عملة، وجمع الناس ووزع عليهم تلك العملات، وخطب فيهم بأن التعامل التجاري سيتم من الآن بهذه العملات، وأمر الخفر بنشر قائمة بأسعار السلع بالعملات، وما هي إلا عدة أسابيع حتى انتشر التعامل بالعملة بين التجار خارج الحارة، واستطاع في النهاية شراء الكثير من الخنازير لإرضاء أهله من كهف الخرافات، كما اشترى الكثير من الجِمال من أجل الأحفاد.

كان التعامل بالعملة بمنزلة الانفتاح التجاري الحقيقي مع الحارات الأخرى، واستطاع ليموس بذكائه أن يستغل ذلك، ويستغل ازدهار الزراعة في بيع العسل الذي يصنع في المناحل الموجودة بالأراضي للحارات المجاورة.

لم تنس تلك الأحداث ليموس طموحه في بنا عزبة كبيرة كصديقه الكبير، وما أن استقرت الأوضاع في الحارة حتى سار برجاله إلى حارة القداسسة، واستطاع الاستيلاء عليها، وضمها لسيطرته، ليعود لحارة يارو سيطرتها القديمة.

(١٥)

مجيدة الأب

كالعادة تدرجت الرعاية في أسرة ليموس حتى وصلت إلى حفيديه ليموس ومجيدة، وكانت مجيدة على عكس أسرتها المعتزلة في بيت الكبير قريبة من الأحفاد، وسعت منذ طفولتها في محاولة أن تكون واحدة منهم، فالْتحقت بمدرسة بيت الكبير، وكرّست تعليمها لخدمة حلمها بأن تصير من الأحفاد، فتعلمت لهجة الأحفاد لتكون الوحيدة من أسرتها التي تتحدث بلسانهم، كما تعلمت لهجات الكثير من الحارات المجاورة، كما تشبهت في ملابسها بملابسهم، وما كانت تلك الأفعال لتصدر إلا من عقلها الذكي، وحلمها الكبير في أن تصبح راعية للحارة كحبيبة.

كانت رغم جمالها الفاتن، وطلتها الساحرة، تظهر بين الأبطال في ساحات التدريب والخناقات كرجل قوي لا يقف أمامه أحد، وكان إلى جانب هذا الوجه الجميل والجسد القوي قلب رحيم، فقد غاب الينبوع عنهم عامًا متسببًا في مجاعة تفشت بين الناس كالمرض، فاجتمعت بالخفارة وأمرتهم بعدم جمع الضرائب هذا العام، كما أمرتهم أن يوزعوا القمح الموجود بمخازن الضرائب على الناس، قائلة لهم:

-إن لم يحن الينبوع علينا، فليحن بعضنا على بعض.

كان في ذلك الوقت في كهف الخشونة - إحدى حارات قرية كهوف الأطماع، مجاور لكهف الأساطير غربًا- يبحث أمير -زعيم الحارة- عن مصدر يسدد منه ديونه الكثيرة، وتسربت تلك الأخبار إلى كهف الأساطير، ومنه إلى مجيدة التي رأت في أمير قوة تستعين بها ضد الحارات المعادية.

خرجت مجيدة من حارة يارو في زيارة إلى كهف الأساطير، ولكنها في الواقع ذهبت إلى كهف الخشونة مصطحبة معها خادمتها، وعندما اقتربا من بيت أمير أرسلت له الخادمة تخبره بأن يقابلها ليلًا عند شاطئ الترعة البيضاء، وعندما قدم الليل خرج أمير من بيته متسللًا، واتجه إلى الترعة، وهناك وقعت عينه على امرأة ساحرة لم يستطع الظلام أن يغشي نور وجهها، وعندما اقترب منها قالت له:

-ماذا تفعل لمن يسدد عنك دينك؟

-أدين له بعمري.

-ولكنني أطمع فيما يتخطى عمرك.

-وما هو ذلك؟

-عمر ابنك.

-ولكن ليس لدي أبناء.

-إن شئت يكون لك ولي.

-ومن ذاك الأحمق الذي يرفض.

تزوج أمير ومجيدة سرًّا؛ لأن قوانين حارته تمنع الزواج من الأغراب، وأثمر هذا الزواج عن ولد أسمته مجيدة "أمير ليموس".

لم يطق أصدقاء ليموس تقرب مجيدة من الأحفاد وعلاقتها مع أمير، وخافوا أن تستقل بالرعاية فيخسرون مناصبهم، فعملوا على إفساد العلاقة بينها وبين أخيها ليموس، وأقنعوه في النهاية أن يطردها من بيت الكبير.

أسرعت مجيدة إلى شرق الحارة، وهناك استطاعت جمع مجموعة من الرجال المؤيدين لها، واتجهت بهم نحو بيت الكبير، وفي الطريق صادفت قوارب أمير وهو يطارد أحد أعدائه في الترعة البيضاء وقد دخل خلفه إلى الينبوع،

فعلم أمير بالخلاف بينها وبين ليموس، فصحبها إلى بيت الكبير ليصلح بينهما، وهناك حاول ليموس جذبه لصفه، ولكنه اتخذ صف مجيدة، فغضب ليموس، وأمر الخفر بالقبض عليهما، فظلا في السجن شهرًا ونصفًا حتى علمت حارة كهف الخشونة بما حدث، فأرسلت مجموعة رجال إلى حارة يارو، وعندما علم ليموس بقدومهم فر خارج الحارة. وصل الرجال وأخرجوا أمير ومجيدة من السجن، وبذلك، استقلت مجيدة بالرعاية، وكان ما حدث بمنزلة تأييد من أمير لها.

رغم ما ظهر من تعاون بين أمير ومجيدة، وانكشف زواجهما السري، لم يستطع أمير أن يعترف بأمير ليموس ابنًا شرعيًّا بسبب قوانين الحارة، ولكنه سعى جاهدًا مستغلًا كونه زعيم الحارة في تغيير تلك القوانين، ولكنه توفي قبل أن ينجح في ذلك، وبعد وفاته قسمت عزبته التي شملت معظم حارات القرى الثلاث بين صديقيه زايد ومشكور، وكان الجزء الشرقي للعزبة من نصيب مشكور.

كان موت أمير، وعدم الاعتراف بابنه بمنزلة البدء من الصفر بالنسبة إلى مجيدة، فهي لا تستطيع أن تستقل بحارة يارو بينما الحارات حولها تحت زعامة مشكور، فلجأت إلى حيلتها الأولى، وكما نجحت فيها من قبل، نجحت هذه المرة وتزوجت من مشكور؛ لتضمن بذلك بقاءها راعية لحارة يارو.

لم يكن الزواج مفيدًا لمشكور كما أفاد "أمير"، وإنما أضرّه؛ حيث كان مشكور متزوجًا من أخت زايد، فأشعل ذلك الزواج العداوة بينهما، ولم تمضِ أشهر حتى طلقت أخت زايد، وأصبحت مجيدة بحكم قانون حارة كهف الخشونة الزوجة الرسمية لمشكور، وأنجبت منه توأمين، وأدى ذلك إلى وصول العداوة لذروتها.

خرج زايد بمجموعة من القوارب المزدحمة بالرجال والسلاح متجهًا إلى حارة يارو، ووصل الخبر إلى مشكور ومجيدة، فجمعوا قواربهم على شاطئ الترعة البيضاء، وعندما وصلت قوارب زايد دارت خناقة عظيمة تحولت فيها السماء إلى غطاء من سهام، وتحولت فيها الترعة إلى مقبرة، وانهزم مشكور ففرّ بعيدًا، وعادت مجيدة إلى بيت الكبير؛ لتحتمي فيه، وانتشرت إشاعات موتها ووصلت إلى مشكور؛ فأخرج سيفه وثبته على الأرض ثم ألقى بنفسه فوقه، ورآه رجاله فحملوه مسرعين، وأخذوه إلى بيت الكبير وهناك مات بين زراعي مجيدة.

إنّ زايدًا على الأبواب، ومشكورًا ذهب إلى الموت، ولا يوجد الآن ما تحتمين به يا مجيدة، وماذا إن أمسك بي زايد، ماذا سيفعل بي؟ هل سيقتلني؛ لمعاونتي لمشكور؟ أم سيرسلني إلى أخته لتعذبني؟ أو ربما ألعن، هل يمكن أن يصيرني إلى خادمة أنظف الأرض تحت أقدامهم، لا، ... يجب ألا يحدث ذلك ... يجب ألا تحيي لتشاهدي ذلك يحدث، إن ما فعله مشكور هو الصواب، إنه الموت خير وسيلة للنجاة.

اتجهت مجيدة إلى خزانتها، وأخرجت صندوقًا وفتحته، وأخرجت منه كوبرا- أفعى سامّة-، ربما كانت تحتفظ بها من أجل هذا اليوم، ثم تركت الكوبرا تلتف حول زراعها الأيسر، وإذ بوغزة في كتفها الأيسر، وها هي تلحق بمشكور.

... عندما وصل زايد إلى بيت الكبير، وزف إليه خبر موت مشكور ومجيدة، أمر بقتل أمير ليموس؛ خشية أن يطالب الناس بتوليه الرعاية بعد أمه، وضمت حارة يارو إلى عزبة كهف الخشونة.

(١٦)

روميو

كيف انتهت الحال بك يا ياروزيس هكذا، تنتقلين بين أيدي المغتصبين، بعضهم يسترون خلف عقد الزواج، والآخرين تعينهم القوة، وأحفادك بين الخداع والخوف، ولا يسعهم السماع منك، فعندما كان متاحًا لهم اعتزلوك، وعندما رغبوا في ذلك عُزلتي عنهم، ولكن ما مقدار الألم الذي سيتركه روميو قبل أن يرحل؟ هل سيكون بمقدار ألم الراعي؟ أم أشدّ فظاعة؟ ... ماذا أصنع لكم يا أحفادي، تتفاخرون بأنني وصلت الخمسمائة عام، وهذا العمر الطويل لا يمكنه أن يقدم لكم فتات خبز تسدون به جوعكم، ولا يمكنه أن يقدم لكم حضنًا تأمنون فيه، كل ما يمكن أن تقدمه لكم تلك الجدة العجوز هو الدعاء، فيا ربّ اصرف عنهم غفلتهم، واهدهم إلى النجاة!

أتى زايد إلى حارة يارو وبذيله روميو، وانتقل زايد إلى الموت، وبقي روميو بفتواته المنتشرين في كل بيوت الحارة ليضمنوا لقدمِه الثبات في أرض الحارة، وقضى روميو على الأبطال، وعزل الأحفاد من مناصبهم، وتركهم بلا قوة أو سلطة تعينهم عليه.

لم يكن روميو إلا سارقًا، ولم تكن الحارة بالنسبة إليه إلا بقرةً حلوبًا، ولم يكن ذلك الحليب من حق أحد غيره، ففرض ضرائب على كل شيء حتى أثاث البيوت، كما كان يسلب منهم الأموال لبناء قصور له، وشراء حُلي وجواهر، وكان رجاله يمرون على الفلاحين بخيولهم، فتأكل الخيول من الأرض حيث شاءت، ثم ينصرفون دون دفع الثمن.

كانت ياروزيس في محبسها يتضاعف خوفها كل يوم، وكان دائمًا ما يتردد في رأسها سؤال حول المصير الذي ستؤول إليه، وكانت أخبار أحفادها تصل إليها فيزداد خوفها، فقد كانوا أقوياء ولم يستطيعوا منع الراعي، فماذا وقد أضعفهم الجوع والفقر، فهرب الكثير منهم من الحارة مؤثرًا الموت خارجها، وتسمع صوت أقدام في الممر فترتعد، ولا تعود إلى سكونها إلا عندما تجدها خادمة أحضرت لها بعض فتات خبز، فتنظر إلى ذلك الفتات، وتسرح بذكرياتها، ويحوم حولها المشهد المتكرر من حسد الأحفاد لها؛ لأنها خالدة، فتعود إلى الواقع وتقول بنبرة حزن فيها شيء من استحياء:

-ليتني لم أخلد؛ لأرى هذا، أنا من يجب أن تحسدكم، فالعمر الطويل ليس إلا زيادة في الألم!

ثار الأحفاد على روميو أكثر من مرة رغم ضعفهم، وقلة حيلتهم، وكانت تنتهي كل تلك الثورات بزيادة في السرقة والتعذيب، حتى كانت الشرارة التي أشعلتهم، حيث أخرج روميو ياروزيس من محبسها، وجعلها خادمة في قصره، فشعر الأحفاد بالإهانة، وخرجوا في وفود غير منتظمة، واستطاعوا أن يقضوا على فتواته المنتشرين في الحارة، ثم اتجهوا إلى بيت الكبير، ولكن قبل وصولهم إليه كانت عصابة كبيرة من الفتوات قد قدمت من خارج الحارة، وسبقتهم إليه، وهناك اشتعلت خناقة كبيرة، سقط فيها الأحفاد الضعفاء من الجوع والمرض أرضًا، والدماء تسيل منهم، وعظامهم قد كسرت، ولم يكتف روميو بهذا، فأمر فتواته باستمرار الضرب فيهم، حتى يصير الألم عضوًا من أعضائهم لا يفارقهم، ويذكرهم دائمًا بما سيحدث لهم إن تكرر ذلك.

بعد فترة قصيرة من تزعم روميو الحارة، ظهر في حارة القداسة دين جديد يدعو إلى التوحيد، وسرعان ما انتقل إلى حارة يارو، ولم يمض الكثير حتى اتبع معظم الأحفاد هذا الدين، وفي أحد الأيام ذهب روميو كعادته إلى دور العبادة ليأخذ الصدقات التي تصدق بها الأحفاد الفقراء، ليسرقهم

حتى في صدقاتهم، فوجد صناديق الصدقات فارغة، فغضب روميو، وظن أن رجال الدين قد سرقوها، فأمر رجاله بالقبض عليهم، وقال بنبرة يفوح منها السم:

-أعيدوا الصدقات التي سرقتموها وإلا دفنتكم حيث تقفون.

-صدِّقنا يا سيدي، نحن لم نسرق شيئًا.

-إذًا أين ذهبت نقودي؟ هل طارت في الهواء.

-لم يأت أحد للصلاة والتصدق منذ فترة.

-كفوا عن الكذب وإلا قطعت ألسنتكم، إن هؤلاء رغم فقرهم لا يكفون عن الصلاة والتصدق والدعاء، إنهم يدعون الله أن يهلكني، ويعجبني هذا الدعاء لأنهم يتصدقون معه بالكثير من الأموال، ماذا حدث لهم؟ هل كفروا؟

-نعم يا سيدي.

-ماذا تقولون؟

-لقد اتبعوا يا سيدي دينًا جديدًا ربه في السماء، لا في تلك الغرف، يُدعى فيجيب دون مقابل أو صدقات، تصلي له بروحك قبل جسدك، وفي كل وقت وكل مكان.

-دين بلا صدقات .... هه .... ويلهم مني، وليحميهم دينهم.

أمر روميو فتواته بضرب وتعذيب كل من يتبع ذلك الدين الجديد، وكان التعذيب يصل إلى القتل أحيانًا، وإلى تمنيه أحيانًا أخرى.

استمر تعذيب الأحفاد سنوات دون جدوى، بل كان عدد المتبعين للدين الجديد يزداد، ويئس روميو من محاولة إجبارهم على العودة إلى الدين القديم، كما أنه وجد طريقة يستغل فيها ذلك الدين لملء جيوبه بالأموال، فاتبع الدين الجديد، وانتقل التعذيب إلى من ظلوا على الدين القديم، وبعد

استراحة قصيرة عاد إلى تعذيب الأحفاد مجددًا؛ لأنهم اختلفوا معه في صورة الإله الجديد، واستمر التعذيب والسرقة، حتى تحول الأحفاد إلى جثث بها بعض حياة، وفي ناحية أخرى تجد ياروزيس تفترش الأرض وأمامها دلو به ماء، وبيدها قطعة قماش تحركها على تلك الأرض القذرة بمن عليها، ثم تنطلق منها ضحكة عبثية قائلة:

-أين أنت يا أم مِراي، ليتك هنا لتشاهدي كيف هي أم النساء الآن.

قد يهون اغتصاب الغرباء، لكن يا أماه اغتصاب الأبناء

ألم لا أستطيع وصفه، بل إنه لم يدع لي قوة؛ لأصفه ...

كلمة للمؤلف

... قارئي العزيز كم يسعدني أن تتواصل معي، وأن تطلعني على رأيك ومقترحاتك.

للتواصل معي:

- → Facebook.com/AhmdAlmohamady
- → Twitter.com/AhmdAlmohamady
- → Ask.fm/Ahmed_Elmohamady
- → AhmdAlmohamady@gmail.com

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
افتتاحية	٨
مِراي	١٠
صابر	١٢
مَصُون	١٥
حام	٢٠
سنوحي	٢٥
الراعي	٣١
أحمد	٣٧
حبيبة	٤٤
حكيم	٥٠
حيان	٥٥
محب	٦٠
وليد	٦٤
الكبير	٦٨
ليموس	٧٢
مجيدة الأب	٧٥
روميو	٧٩